الرافد
كتاب
العدد 001 – يناير 2010
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة
ص.ب. 5119
هاتف : 5671116/9716+
بـراق : 5662126/9716+

المدير العام
عبد الله محمد العويس

مدير التحرير
د. عمر عبد العزيز

هيئة التحرير الاستشارية
هشام المظلوم
عبد العزيز المسلّم

سكرتارية التحرير التنفيذية
عبد الفتاح صبري
أسامة مرة
نورة شاهين

www.arrafid.ae

* المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

وكلاء التوزيع : دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي: ت: 04/3916501، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561-05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562-0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200 ، مصر: مؤسسة أخبار اليوم : ت:5782700 ، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

في مدار التنِّين

علي كنعان

1

العملاق الصيني دائب على استكمال نهضته

شعرت بأسى عميق وأنا أتابع آثار الزلزال المروِّع الذي تعرضت له مقاطعة سي تشوان في جنوب غرب الصين؛ فقبل نحو شهر من وقوع الكارثة كنت في زيارة تلك البلاد الجميلة، وكنت سعيداً بالتعرف إلى أصدقاء وأساتذة جمعتني وإياهم مجالس ودية حميمة وأمضينا أمسيات أدبية حافلة بطيبات من زاد الفكر والجوارح ومتعة النفس وتبادل

الأحاديث المفعمة بالمودة والمعرفة والمؤانسة. وإذا كانت كلمات العزاء، على البعد، لا تخفف من آلام الكارثة ولا تعصب جرحاً أو تسعف مصاباً، فلعل هذه المشاركة الوجدانية المخلصة بين الأصدقاء تحمل شيئاً من الأمل بأن تنتهي هذه المحنة على خير وأن تندمل الجراح قريباً ويتماثل المصابون للشفاء وينتصر هذا الشعب العظيم على تحدياته وآلامه. ورغم فداحة الكارثة، يظل الصينيون ينظرون إلى الطبيعة كأم عظمى مفعمة بالحنان، وإن غضبت أحياناً وتصرفت بمثل هذه القسوة الموجعة بعيداً عن حكمة الأمومة وتبصرها وعاطفتها. وحسبي هنا أن أشير إلى كلمات مستعرب صيني صديق إذ كتب يقول: «إن المشاهد لمؤلمة حقاً، ولكن أبناء شعبنا أظهروا أثناء هذه المأساة صموداً وجرأة متحدين كإنسان واحد، وإننا نثق بأننا قادرون على دفع المصائب بجهودنا وبمساعدة الشعوب الصديقة في العالم، وأن مستقبل البلاد سيكون أكثر إشراقاً».

تنشر الريح ذيل الحصان

في ألف خصلة من الخيوط...

وتنعكس الشمس على حراشف التنين

في عشرة آلاف قطعة من الذهب.

هواجس وأجواء

تبدأ الرحلة قبل موعدها فكرة وردية، ملفوفة بغلالة ضبابية وهواجس غامضة، ثم تتضح ملامح الصورة حين نقوم بإعداد البرنامج وتصفح الخرائط واختيار أهم المدن والمعالم التي ينبغي أن نزورها ونستقرئ ملامحها. لن أتحدث عن مشقة السفر ولا عن حالتي الوجدانية في الانكماش بين حنايا الطائرة والتماس العزاء في عروض الشاشة الصغيرة وتخدير الأعصاب لمواجهة أحوال الجو وتقلباته، فلكل واحد منا طاقته البدنية وشطحاته الفكرية ومزاجه النفسي إزاء ذلك، لكن ثماني ساعات في الذهاب وتسع ساعات ونصف الساعة في الإياب ليست رحلة مريحة وأنت حبيس القفص المعدني السابح في عباب المدى الرمادي المترامي بين الأرض والسماء.

يبدو لي أن البلاد التي نزورها ونطوف بين معالمها لا نراها على حقيقتها ولا نستطيع الإحاطة بتفاصيلها الواقعية، إنما نستكشفها ونتجول بينها من خلال مرآة الذات، فكراً وعاطفة وذائقة.

جمهورية الصين الشعبية قارة واسعة تأتي، من حيث المساحة، في الدرجة الثالثة بعد روسيا وكندا، وهي الكبرى في عدد

السكان. تمتاز عاصمتها بكين بأهمية خاصة في موقعها وجمالها ومعالمها الأثرية، لكن شنغهاي على ساحل بحر الصين الشرقي تفوقها ضخامة وحداثة وانفتاحاً. كانت هذه البلاد إمبراطورية وما زالت كذلك بكل عظمتها الحضارية العريقة في علوم الفلك والملاحة والأعشاب وصناعة الخزف والدواء والحبر والورق، فضلاً عن الأساطير وتعاليم كونفوشيوس ولاو تسي وبوذا.. وحتى وقتنا الحاضر. وتتردد في خاطرك مشاهد ولمحات من تاريخها القديم الحديث، وترى أن العاصمة وما يحيط بها من صروح التاريخ تستأثر باهتمامك، فتستعجل الوصول وتعود بك الذاكرة إلى ابن بطوطة وتطوافه الواسع المديد ما بين الصين والأندلس، ويطير بك الخيال إلى عهد الإمبراطور (جو دي) ورحلات أسطوله العظيم، لكن الطريق ما زال طويلاً...

تطل عبر الكوة المجاورة فترى الفضاء سادراً حولك. السحب البيضاء التي تمر بها أحياناً، أو تلوح لك من بعيد، تتهادى بأشكال فنية مختلفة وكأنها مقتطفات من قصائد غنائية أو لوحات شفافة لا تلبث أن تختفي كوجوه الأحبة. إطلالة القمر وحدها، بكل ما توحي به من أنس وبهجة واستبشار، لا تجود بها عليك صفحة السماء إلا في حالات نادرة وفق مصادفة فلكية عجيبة تجعل زاوية

النظر منسجمة بين موقع القمر واتجاه سير الطائرة. ومن نعم الباري أني سعدت بصحبة القمر بضع ساعات وانهمرت في خاطري أطياف شتى وصور ملونة من الشعر الذي احتفى بهذا الملاك الدري السهران وتغنى بجماله، واقعاً ومجازاً ورمزاً في أكثر من لغة وعبر مئات الأجيال.

الانسجام الفلكي

الشمس في الأساطير الشرقية ترمز للرجل ويمثلها على الأرض الإمبراطور، والقمر بلطفه الأنثوي يرمز للمرأة، والنساء مراتب ودرجات، والإمبراطورة هي المرأة الوحيدة التي تمثل البدر في ليلة التمام. ولأن التقويم الصيني منذ القدم يعتمد على منازل القمر، فإن علاقة الإمبراطور بزوجاته ومحظياته منذ ثلاثة آلاف سنة تخضع في الغالب لأيام الشهر القمري. والانسجام الفلكي بين الشمس والقمر لا يبلغ ذروة كماله إلا ليلة التمام. ففي أول الشهر يبدأ لقاء الإمبراطور بأدنى مرتبة من مراتب الزوجات والمحظيات حتى يكتمل القمر بدراً فتكون تلك الليلة من نصيب الإمبراطورة، وهي تمتاز بأن من حقها وحدها أن تبقى معه حتى الصباح في تلك الليلة. ومهما كان عدد النساء في جناح الحريم،

فقد حددت التقاليد للإمبراطور الحق بمعاشرة 122 امرأة، وتأتي الإمبراطورة على رأس هذه القائمة. وهناك أربع زوجات من الدرجة الثانية، وتسع زوجات من الدرجة الثالثة، و27 من الدرجة الرابعة و81 من الدرجة الخامسة. إن ليلة التمام تقسم الشهر إلى نصفين، وتقل أهمية كل ليلة حسب بعدها عن تلك الليلة البدرية الخاصة بالإمبراطورة. وهناك بطاقات خاصة تحمل أسماء الزوجات، وتقضي التقاليد في وزارة الطقوس بأن تحتفظ المرأة المكلفة شؤون غرفة النوم بسجل خاص للقاء الإمبراطور بزوجاته، حفاظاً على سلامة السلالة.

ومن المؤكد في الأمر أن هذه واقعة تاريخية وليست من أساطير الأولين، خاصة وأن الوثائق المدونة تذكر أن الإمبراطور (265–290م) من سلالة جين كانت قصوره تضم عشرة آلاف امرأة يقمن في أجنحة متعددة، وكان يطوف عليهن ليلاً بعربة تجرها الماعز، وعندما تتوقف أمام أحد الأجنحة كان يترجل ليمضي ليلته هناك. أما الإمبراطور مينغ هوانغ من سلالة التانغ كان يحتفظ بـ 40 ألف محظية في جناح الحريم الإمبراطوري. من بينهن أربع زوجات وإمبراطورة. وتشير بعض الدراسات إلى أن هذا الانغماس العبثي المفرط في الملذات هو الذي جعل متوسط عمر الإمبراطور 41

سنة وحسب، في حين أن متوسط عمر الكاهن البوذي الذي يعيش زاهداً متقشفاً في أحضان الطبيعة 77 سنة.

عالمان متناقضان

كان هاجسي الشعري أن أغوص في مدار التنين وأمتع نفسي بمعرفة ما أمكن من تراث هذا العالم الجديد وثقافته العريقة. تشير الأساطير الصينية، من قبل خمسة آلاف سنة، إلى أن التنين يرمز إلى الخير والسعادة والخلود والقوة، كما أنه رمز الإمبراطور وسلطانه. لذلك، نراه مرسوماً بكثرة على الثياب والجدران والأدوات وحتى الدمى والملصقات الإعلانية. وغالباً ما نراه يلهو بلؤلؤة (كرة الرعد). ومنذ سلالة هان (206–226) قبل الميلاد، صار التنين يحمل معنى رمزياً حسب لونه. وهو في الغالب أحمر أو ذهبي، فيروزي أو أبيض. فاللون الفيروزي رمز الإمبراطور كما يرمز للشرق حيث تطلع الشمس، والمطر، والعنصر الخامس من عناصر الفلك الصيني وهو الماء، ويقابله عطارد من الكواكب. والعناصر الأربعة الأخرى على التوالي هي: الخشب، النار، التراب، المعدن. ويقابلها من الكواكب: المشتري، المريخ، زحل، الزُّهَرَة. وإذا كنا ندرك أن المريخ بلونه الأحمر يتفق مع

النار، وهو إله الحرب في الأساطير الإغريقية والرومانية؛ وأن الزُّهَرَة، إلهة الحب والجمال، تنسجم مع الذهب (المعدن)؛ لكني لا أدري كيف يتفق عطارد، وهو أشد الكواكب حرارة، مع الماء. ويبدو لي، وأنا من عشاق علم الفلك، أن قربه من الشمس هو الذي جعله يقترن بعنصر الماء، انطلاقاً من المثل العربي:

والضِّدُّ يُظهِرُ حسنَه الضِّدُّ!

مع احتكاك عجلات الطائرة بأديم المدرج، تشعر بأن الأرض تتلقاك بحضنها الدافئ كأم حنون. وفي لحظات النجوى مع النفس تخطفك الميثولوجيا الصينية وتتساءل: هل الطبيعة أم حقاً أم هي عدو؟ الصين تؤكد لزائرها أن الله أبدع الطبيعة لتكون الأم الكونية العظمى، أمنا جميعاً، وإن اتخذ الغرب منها عدواً محكوماً بالقهر والاستنزاف والتدمير. وتلك هي الهوة السحيقة الفاصلة بين عالمين وفلسفتين ومنهجين متناقضين، أحدهما يسعى إلى بناء حضارة البشر وهاجسه أن يسود التفاهم والمحبة والتعايش والسلام في شتى أرجاء هذا الكوكب الجميل.. والطرف الآخر يخوض، بكل سعار وحشي، معارك النهب والإبادة والدمار. إنها فلسفة «فاوست» الجهنمية في الحصول على المعرفة المطلقة والقوة المطلقة.

مطار بكين الجديد، على بعد ثلاثين كيلو متراً من العاصمة، يشكل مدينة فنية فسيحة، رائعة التصميم والتنظيم والزخرفة، من دون أن يتخلى عن هويته الصينية العريقة في طراز المعمار التقليدي والأبهاء الشامخة الواسعة والتناغم السحري بين الألوان التقليدية التي تجعل من الأصفر والأحمر لونين غالبين في العمارة والزينة واللباس والأثاث والأدوات، وإن جاءت الألوان الأخرى أشبه ما تكون بوشي جمالي أو لمسات شعرية من الأبيض والأزرق والبنفسجي. ولا ينبغي أن تخاف من المشقة في قطع المسافة المترامية بين مكان الهبوط ومعابر تدقيق الجوازات وبهو استلام الحقائب، لأن قطاراً حديثاً سيكون في انتظارك ليقلك إلى مبتغاك خلال دقائق معدودات.

وتستقبلك العاصمة الصينية بلطف ومودة وإشراق، والنهار يوشك أن ينتصف، والربيع في مستهل موكبه النضير. تتأمل الشوارع النظيفة الهادئة، والمطرزة بالشجر، وتكتشف أن معظم المباني لا ترتفع أكثر من خمسة طوابق أو ستة، ومن النادر أن تصادف أبراجاً تناطح ذيول السحاب باستثناء برج التلفزيون. تتأمل ذلك بارتياح وتقدير، ثم تدخل المدينة القديمة بأزقتها الضيقة ومساكنها الشعبية ومحال الخدمات السياحية فيها،

وتلفت نظرك المطاعم الصغيرة التي زينت واجهاتها بقناديل حمراء، حتى ينتهي بك المطاف إلى الفندق المطلوب. وقبل أن تفتح الحقيبة وترتب أشياءك في الخزانة المجاورة، يدفعك التعب أن تلقي بنفسك على السرير المغطى بملاءة حمراء تزينها صورة تنين ذهبي وحوله أغصان مورقة وأزهار، ولا تملك إلا أن تتفاءل ويحف بك جو من السكينة، فهذا الكائن الأسطوري سيدفع عنك الأرواح الشريرة ويحميك من الكوابيس.

وجبة بلا لغة

بعد القيلولة وتناول الشاي الأخضر الذي وضعوه على المنضدة إلى جانب الأدوات الخاصة بإعداده، تاركين لك حرية اتباع الطريقة التي تروقك في صنعه، تبدأ عصافير المعدة نداءها بإلحاح وقد اقتربت ساعة الغروب وأنت ما زلت بلا غداء. تخرج إلى الشوارع المجاورة رغبة بالاكتشاف وبحثاً عن مطعم تقليدي، بعيداً عن المصنعات الأمريكية السريعة. تمر بورشات البناء وتقف أمامها لالتقاط صورة تذكارية والعمال منهمكون في تجديد العمارات القديمة، فلا تملك إلا الإعجاب بهذا الشعب العظيم الدائب على العمل طوال اليوم، لا بالآلة التكنولوجية الحديثة التي

يتقن صنعها في بلاده، إنما تراه يعمل بالأيدي النحيفة المكسوة بقفازات واقية وقد اعتمر بقبعة صفراء تقليدية. تمر به وتحييه بانحناءة خفيفة فيرد التحية بأحسن منها مشفوعة بابتسامة لطيفة مرحبة.

كان علينا، قبل كل شيء، تحويل العملة من الدولار إلى اليوان، فتوجهنا إلى أحد البنوك ولم ننتظر طويلاً، كما جرت العادة في البلدان الاشتراكية أيام عزها. يكفي هنا أن يكون جواز السفر معك، وأن تنتبه لأرقام اللوحات الإلكترونية وتلتزم بالرقم الذي يحدد دورك. خرجنا نحمل نصيبنا من اليوانات المزينة بصورة الزعيم الصيني الراحل، وكان سعر الدولار نحو سبع يونات إلا قليلاً. تابعنا طريقنا نتصفح الواجهات المضيئة، ولم يكن المطعم الذي أعجبتنا واجهته بعيداً عن البنك. الانحناءة اللطيفة على الباب لم تكن كافية ولم تشفع لنا باجتياز عقبة اللغة. تصفحت لائحة الطعام فلم أعرف منها شيئاً. ويبدو أنهم معتادون على حل مشاكل الغرباء، فأسعفونا بلائحة كبيرة مزودة بالصور، ولم يكن أمامنا إلا أن نختار أجمل الأطباق المرسومة بألوانها المبشرة بوجبة طيبة. تناولنا الخضار والمقبلات، لكنا لم نستسغ طعم الأطباق الأخرى على اختلاف ألوانها الزاهية. كانت تجربة غير

سارة ولا مجدية في أول أمسية، ولم آسف لضياع ما يقارب ثمانين دولاراً، لكني لمت نفسي كثيراً لأني لم أتقن الصينية قبل الوقوع في ورطة الطعام. وتذكرت إيسوب وحكاية العنب الحامض، وكان لا بد أن نستكمل إسكات المعدة بالفاكهة التي لم تكلفنا كثيراً.

مهرجان الرياضة

جاءت مناسبة الألعاب الأولمبية التي تقرر موعدها في أغسطس/آب لترى بكين وقد تحولت إلى مئات من خلايا النحل البشري منتشرة في شتى أحيائها، بعضهم منهمك في إنجاز الصروح الرياضية، وآخرون مشغولون بتجديد الأبنية القديمة أو ترميمها وتجهيز عشرات الفنادق الحديثة، لأن عدد الزوار المتوقعين يربو على المليون. والطريف أن عديداً من البيوت القديمة تتحول إلى فنادق أو مساكن فندقية، كما يجري في معظم المدن ذات الإرث التاريخي العريق. الإعلانات في الشوارع والساحات تبين لك أن عاصمة عرش التنين الجميلة قادمة على مهرجان عالمي كبير، ويكفي أن تتصفح خريطة بكين لترى مواقع القرية الأولمبية مرسومة بوضوح وموزعة في أكثر من منطقة،

وهي تستعد لاستقبال الضيوف والمشاركين في المنافسات العالمية، على اختلاف ميادينها الرياضية، غير آبهة بمظاهر الشغب والإساءة والاحتجاج التي تطفح بها وسائل الإعلام الغربي...

وحين تلتقي الأصدقاء الصينيين وتحاورهم أو تشاهد محطات التلفزة، تفاجأ بأنهم مشغولون، إلى حد الاستغراق، بشؤون بلادهم وتحسين ظروف عيشهم أمة وأفراداً، بعيداً عن السعار الغربي الذي يضرمه في بقاع شتى من العالم قادة النهب والعدوان وتجار الحروب. كنت أتابع ما تعرضه الشاشات الزرقاء، وأتملى انهماك الصيني بعمله غير مكترث بحماقات الآخرين بعيداً عن داره، وقول المتنبي يتردد في خاطري: «أنام ملء جفوني عن شواردها...».

ولعل التاريخ هنا يفرض حضوره وتأثيره، فضلاً عن الموقع الجغرافي المترامي الأطراف. فالصين هي القوة الوحيدة في العالم التي لم تلوِّث تاريخها الحضاري المشرق بمخازي الاستعمار وكوارثه، رغم المعاناة الطويلة التي كابدها الشعب من قوات الغزو والاحتلال، على اختلافها. وهذه الحقيقة التاريخية تجعل الشعوب المظلومة تنظر إلى الصين بأمل وإعجاب وأمان، بغية إقامة علاقات إنسانية راسخة محكومة بالمودة والتفاهم والمساواة.

عاصمة الشمال

بعد جولة عاجلة على عدد من فنادق بكين لاصطحاب السياح الراغبين بزيارة الأضرحة الإمبراطورية والسور العظيم، وقد أخذت الحافلة تنطلق بنا خارج المدينة، قالت الدليلة الشابة: ها نحن ندخل الحلقة الخامسة من طرق العاصمة، وسنخرج بعد قليل إلى منطقة قبور المينغ. نشرت الخريطة أمامي فتبين لي أن بكين تقع داخل أربعة مربعات مكسورة الزوايا قريبة الشكل من الدائرة، وهي مرسومة بخط عريض ولون مختلف... وفي الحال تذكرت دوائر باريس وخيل لي أن فكرة الدوائر هذه من تأثيرات الاستعمار الفرنسي، لكن المراجع الصينية تشير إلى أن المدينة المحرمة هي مركز العاصمة أو الحلقة الأولى في تصميمها منذ القديم، ثم تأتي الحلقات الأخرى تباعاً. تأملت الخريطة وبحثت عن موقع الفندق الذي نقيم فيه فتبين لي أنه يقع في الدائرة الثانية، على مقربة من محيط المركز، القصور الإمبراطورية، وهي الدائرة النواة واقعاً ورمزاً وتراثاً. شعرت بمسرة غامرة للمصادفة السعيدة التي أتاحت لي الإقامة في قلب الأحياء القديمة من بكين أو بيجينغ – كما يلفظونها ويكتبونها. والجميل أن الفندق من طابقين وباحة أرضية مستطيلة، محاطة بعشر غرف. إنه دار تقليدية نموذجية

توحي بالدفء والسكينة والألفة، وقد كانت قبل 250 سنة مقراً لباحث وعلامة جليل اسمه جي شياولان (1724-1805) كان رئيس التحرير في إنجاز أول موسوعة للتاريخ الصيني. وقد عينه الإمبراطور وزيراً للتربية والتعليم ومسؤولاً عن الامتحانات، وقدم له تلك الدار هدية ليقيم فيها ويلتقي العلماء والمثقفين والباحثين الذين شاركوه في كتابة الموسوعة.

وتذكرت السيدة هالة في مكتب أبوظبي لرحلات الاتحاد، وشكرتها من بعيد على مساعدتنا باختيار هذا الفندق الرائع ببساطته وهدوئه ونظافته. ولعل اسمه (السعادة المزدوجة) هو الدافع الذي أغراني باختياره قبل أن أراه، فنحن في بلادنا العربية نفتقر في كثير من الأحيان للسعادة الزوجية، فضلاً عن السعادة الشخصية. وهكذا ابتعدت عن صروح النجوم الخمسة واكتفيت بأجواء مستوى أقل. اسمه الصيني Yue Wei Zhang، وفاجأني أحد الأصدقاء الصينيين بأن معناه فندق علاَّمة القرية، ولا علاقة له بمعجم السعادة.. ولم أجرؤ على إخبار فاطمة، رفيقة الدرب، بذلك خاصة وأن الفتى السبعيني كان يستعد للاحتفال بربيع جديد مع نهاية الأسبوع الأول من نيسان/ إبريل!

كلمة (بيه-جينغ) Bei-Jing مؤلفة من مقطعين ومعناها:

عاصمة الشمال، وذلك تمييزاً لها من عاصمة الجنوب: نان-جينغ التي كانت عاصمة الإمبراطور الأول في سلالة (مينغ)، وفي ضواحيها دفن، قبل أن ينتزع ابنه الأمير «جو دي» العرش من ابن أخيه المدلل وينقل العاصمة إلى الشمال سنة 1420. وغالباً ما يكتفي الصينيون بلفظ (جينغ) أي العاصمة، اختصاراً، دون ذكر (الشمال). وفي قلب هذه العاصمة بنى الإمبراطور مدينته المحرمة، قبل نحو ستة قرون، ومنها صدرت الأوامر لأمير البحر المسلم «جينغ خيه» للقيام برحلاته السبع المدهشة، وتحت إمرته نحو ألف مركب وعشرات الألوف من الرجال، قبل أن يفكر الغرب بارتياد أعالي البحار والسيطرة على طرق التواصل والتجارة بأكثر من مائة سنة. وكانت العاصمة قبل ذلك مركزاً لأباطرة المغول واسمها «دادو»، وقد ورد ذكرها عند ابن بطوطة باسم خان بالق.

الأحياء القديمة

يطلق الصينيون على الأحياء القديمة في العاصمة اسم هوتون Hutton ومعناها: (الأزقة الضيقة) وهي تشبه الأحياء القديمة في دمشق والقاهرة وبغداد وصنعاء، إنما تمتاز أزقتها الضيقة بصف

من الأشجار المعمرة التي تحظى بعناية فائقة ولا يسمحون بقطعها. ولمزيد من الحرص على الشجرة «الهرمة» والالتزام بحمايتها، يضعون على جذعها بطاقة معدنية تحمل رقماً خاصاً بها ويحيطون منبتها بحوض معدني أو رخامي. ولاتزال أعمال الترميم والتجديد جارية في مناطق شتى من هذه الأحياء، وعلى نطاق واسع دون الإخلال بطرازها العمراني الأصيل. كما أن الآجر المشوي هو الحجارة التي يبنون بها، وهو مستطيل الشكل وسميك، وليس رقيقاً هشاً كالقرميد عندنا، لكنه مصنوع من تربة صلبة متماسكة. وليس غريباً أن ترى أن جميع أعمال الترميم والتجديد في البناء تجري بطريقة يدوية. ولعل السبب الرئيسي في ذلك وفرة اليد العاملة وضرورة تشغيلها لمكافحة البطالة، رغم أن الصين من الدول المتقدمة في الصناعة والتكنولوجيا، فالعمل هو القيمة الأولى والأهم إلى جانب العلم وتحقيق الانسجام والتناغم في كل خطوة ومع كل إنجاز. وليس غريباً أن تجد كلمة (هارموني) Harmony في كل مقالة تتحدث عن الفن، الشعر، العمارة، الطعام، تصميم الحدائق والمعابد والقصور، وحتى في العلاقة الزوجية والتآلف بين الجسد والروح وبين الأرض والسماء.

ارتفاع المباني لا يزيد على طابقين في هذه الأحياء. وليس

غريباً أن تصادف شجرة عمرها مئات السنين، فالطبيعة يجب أن تحاط بالاحترام والحب والحماية. والاهتمام بالأشجار المعمرة يذكر بشجرة الأسرة الصينية واهتمام الزوجين بالكبار والصغار معاً، فالشجرة لا تعيش بلا جذور ولا تزهو وتستمر إلا بنضرة الفروع المورقة والأزهار. وإذا كانوا يواجهون الانفجار السكاني بتحديد النسل بطفل واحد وتغريم من يخالف القرار، فإنهم يسمحون بإنجاب طفلين إذا كان الأب وحيد والديه.

الحكمة الصينية

لا تنفصل الحكمة الصينية عن الشعر، كما لا ينفصل جمال الفن عن روعة الطبيعة وجمال الروح، وأترك محاسن المرأة وروعتها كامنة في حبة القلب دون أن يخطر في بال الشاعر أنه سيدخل ربيعه متأخراً في رحاب عرش التنين، ولا يملك إلا أن يضيع بين الظباء السارحات عبر الحدائق والمعابد وبين حقول الأرز وغابات الجبال. ولكن أن تصل متأخراً خير من أن تحرم نفسك متعة السفر والتواصل والاكتشاف. والصينيون مولعون بالأرقام ولعهم باستطلاع الأبراج وعلم الفلك والرياضيات: فالحظ السعيد مقترن بالرقم 6، والثروة مواكبة للرقم 8، والعمر

المديد مرتبط بالرقم 9، أما الرقم أربعة (شي) في الصينية واليابانية معاً.. فهو رقم مشؤوم ونرجو من الله تعالى أن يبعده عنا وعنكم جميعاً.

التقاليد والعادات تختلف من شعب إلى آخر، وذلك ما يعطي الترحال والاكتشاف فائدة جديدة ومتعة مضاعفة. لكن المبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية والأسس الحضارية تظل متقاربة ومشتركة بين جميع البشر، وإن تعددت الأذواق والأمزجة وتباينت المصالح والأهواء. ولعلنا نرى في الحكاية الآتية إشارة كافية إلى أهمية الحكمة المتوارثة عن الآباء والمعلمين الأوائل عبر آلاف السنين:

كان المعلم (تشانغ تسونغ) في أواخر أيامه حين قدم تلميذه لاو تسي لعيادته والتزود من خلاصة حكمته. قال التلميذ اللبيب: «ألا تزودني بآخر كلمات الحكمة، يا معلمي؟».

أجاب المعلم: «عليك أن تنزل من عربتك حين تمر ببلدتك الأم».

قال لاو تسي: «نعم، يا معلمي.. هذا يعني أن على الإنسان ألا ينسى أصله».

وتابع المعلم: «إذا رأيت شجرة عالية فتقدم منها وتطلَّع إليها كما يليق بك».

ـ نعم، يا معلمي.. إن عليَّ أن أحترم من هم أكبر مني».

وأخيراً قال تشانغ تسونغ: «والآن، انظر وأخبرني إن كنت ترى لساني...» ثم فتح فمه بجهد واضح.

ـ نعم، أراه...

– «وهل ترى أسناني؟».

ـ لا، لم يبق منها شيء!

وسأل المعلم: «هل تعرف لماذا؟».

أجاب لاو تسي: «في تقديري أن اللسان بقي سليماً لأنه طري مرن، أما الأسنان فقد سقطت لأنها صلبة قاسية... أليس كذلك؟».

وقال المعلم كلمته الأخيرة: تلك هي خلاصة الحكمة في العالم.

وتفكر لاو تسي ملياً وقال: «لا شيء في العالم أطرى ولا أندى من الماء... ومع ذلك ليس في الوجود ما يفوقه في التغلب على

الأجسام الصلبة. نعم، إن اللطيف يغلب الشرس القوي. كل إنسان يعرف ذلك، لكن قلة من الناس تعمل بهذه الحكمة».

ومن البسمة الآسرة والتحية الدافئة والمعاملة اللطيفة أينما توجهت تدرك أن تلك الحكمة ما زالت مغروسة في النفوس أعمق من جذور الخيزران وأقوى من الماس.

الأرض الطيبة

كنت أتطلع إلى زيارة هذا البلد العريق منذ أربعين سنة، عندما قرأت (الأرض الطيبة) لبيرل باك، وهي أول رواية أمريكية تنال جائزة نوبل للآداب. وفي تلك السن المبكرة، تعجبت كيف يشرب الصينيون منقوع الشاي بلا سكر! والرواية ترصد حياة الفلاحين في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين وتكشف مدى تعلق الإنسان بأرضه. فما دام يشعر بتربة الحقل تحت قدميه والمعول في يده، ومحصوله يباع في البلدة المجاورة، فإن ذلك أغلى من كنوز العالم. لكن حياة الفلاح تعاني من الجفاف حيناً مثلما تعاني في أحيان أخرى من غزارة الأمطار وأخطار الفيضان. والأدهى من ذلك أن الأبناء يتآمرون على بيع الأرض لينتقلوا إلى

المدينة. وفي تلك المرحلة بدأ التحول الكبير في الصين، وخلال بضع سنوات كانت المسيرة العظمى التي قادها ماو تسي تونغ ورفقاؤه هرباً من قوات شان كاي تشيك، واستمرت نحو 370 يوماً، وبلغ عدد ضحاياها عشرات الآلاف. لكن الدراسات تؤكد أنها كانت نقطة التحول الحاسم في طريق انتصار الثورة.

تلك الرواية وعالمها الريفي الحافل بالبؤس والأمل والكفاح اليومي شكلت هاجساً ملحاً لزيارة الصين. وجيلنا الذي شغلت شبابه ثورة ماو وشو إن لاي ودورها الكبير في انتصار فيتنام ظل مأخوذاً بجمال الشرق وفياً لعشقه الأول، ولم تزده تحولات العصر العاصفة إلا تمسكاً بالتراث والقيم، دون التخلي عن تطلعات المستقبل. ويوم أتيحت لي زيارة الولايات المتحدة، رأيت الحي الصيني في سان فرانسيسكو من أجمل المعالم في تلك المدينة المستلقية على كتف المحيط الهادئ. وعبر جبال اليمن الشاهقة، كنت أتأمل بإعجاب وتقدير تلك الطرق اللولبية المدهشة التي صممها المهندسون الصينيون وأنجزها عمالهم المهرة، وأنا أمني النفس أن أصل إلى تلك البلاد ولو في نهايات خريف العمر. ويوم حطت بي الطائرة في مطار بكين، وأنا في طريق العبور إلى اليابان، في أوائل التسعينات من القرن الماضي،

تمنيت أن أهبط في تلك المدينة وأبقى أياماً في حناياها الدافئة... ولم تتحقق الأمنية.

في جامعة طوكيو، كان الأساتذة يتحدثون عن أهمية التراث الصيني الكلاسيكي، شعراً وفناً وعمارة، وحتى الأبجدية اليابانية (كانجي)، أبجدية الرموز والأشكال الهيروغليفية، وفدت من الصين مع البوذية والطراز العمراني والبنية الهيكلية للنظام الإمبراطوري المتوارث عبر أربعة آلاف سنة. وكان الحلم يزداد توهجاً كلما بدت لي فرصة إنجازه بعيدة المنال.

منارة الإمارات

وأخيراً جاءت الرحلة مفاجئة كانهمار المطر بلا موعد ولا مقدمات. وقبيل السفر، قال لي الشاعر محمد أحمد السويدي، راعي مشروع «ارتياد الآفاق» الخاص بأدب الرحلة: حاول ألاَّ تنام.. وتلمَّس العوامل والقوى الكامنة في نسيج هذا العملاق القادم بجدارة لاحتلال مكانته اللائقة في سلم الحضارة المعاصرة. وفي قسم اللغة العربية بجامعة بكين سمعت كلاماً مشابهاً: نعم، بلادنا استيقظت ودخلت أولى مراحل الإصلاح والانفتاح،

ولكنها لم تنجز كامل نهضتها المأمولة بعد، وإن كانت تسير في الطريق الصحيح بكل وعي وتصميم وثقة.. بعيداً عن الارتجال والمغامرة والاستعجال. ويقول أحد الأساتذة: عوامل النهضة متوافرة بأركانها الثلاثة: وهي القوة البشرية، والعمل الجماعي الدؤوب، والعقل المنفتح والمعتمد على العلم، ثم تأتي الإرادة الحرة الواعية لتكون الإطار والناظم الذي يضم هذه العناصر الثلاثة.

ولعل أجمل ما في تلك الجامعة أنها ما زالت تحتفظ بأكثر من لوحة تشهد بأنها منحة مقدمة من دولة الإمارات، وهي ماثلة كالمنارة بحروف عربية واضحة أمام كل زائر. فهناك لوحة تذكارية منقوشة بالعربية والصينية تبين ذلك، كما أن اللافتة التي تغطي قسماً كبيراً من جدار الواجهة تقول: مركز الإمارات للدراسات العربية والإسلامية.

بين الشعر والعرش

في منطقة أضرحة (مينغ) الإمبراطورية الواقعة في الجنوب الشرقي من العاصمة، وهي تبعد عنها نحو خمسة وأربعين

كيلومتراً، لم يكن ممكناً أن نقوم بزيارة جميع مدافن الأباطرة وهم ثلاثة عشر، وإلى جوارهم ثلاث وعشرون إمبراطورة، ومحظية واحدة، حاولت أن أعرف عنها شيئاً فلم يسمح لي ضيق الوقت بذلك. وكان علينا أن نكتفي بزيارة ضريح «جو دي» والنصب التذكاري الفخم. وفي عهد هذا الإمبراطور سادت الصين البحار، يوم قام القبطان المسلم «جينغ خيه» بسبع رحلات قطع خلالها المحيط الهندي متنقلاً بين موانئ الهند متقدماً إلى سواحل بحر العرب، مواصلاً طريقه غرباً حتى تجاوز كينيا وبلغ سواحل تنزانيا، وذلك قبل الاكتشافات البحرية الأوروبية بنحو مائة سنة. وهذا مما يؤكد أن بحارة الصين الأوائل هم الذين اكتشفوا العالم الجديد في أمريكا وأستراليا، قبل رحلات ماجيلان وفاسكو دي غاما وكولمبوس بمئات السنين.

كان للشعر مكانته المرموقة في البلاط الإمبراطوري.. كما كان له دوره الكبير في المنافسات الثقافية بين أمراء البلاط وموظفيه الكبار، ولم تكن وراثة عرش التنين بمنأى عن ذلك التأثير السحري للشعر، كما أن عدداً من الأباطرة كانوا شعراء ورسامين. ويبدو أن «جو يوانجانغ» أول إمبراطور في سلالة (مينغ) لم يكن مصيباً حين خالف روح الشعر في إيثار حفيده على

ابنه في أصول وراثة العرش. فقد طرح على كل من حفيده (جو يونوين) وابنه (جو دي) أن يكملا هذا البيت الافتتاحي من الشعر:

تنشر الريح ذيل الحصان في ألف خصلة من الخيوط...

جاء جواب الحفيد في صورة شعرية ضعيفة وكئيبة، إذ قال:

ويرص المطر صوف الغنم في قطع منبسطة من اللباد.

لكن جو دي، الأمير الذي سينتزع العرش من ابن أخيه بعد حين، قال:

وتنعكس الشمس على حراشف التنين في عشرة آلاف قطعة من الذهب.

ولا يفوتنا أن نرى هنا الفارق الكبير، فكراً وفناً، بين الصورتين. فالحفيد اكتفى بذكر المطر، وهو مقدس لأنه منحة من السماء. أما الابن فقد ذكر الشمس والتنين ورقم الكمال السماوي (عشرة آلاف) في بيت شعري واحد. وإذا كان الشعر قادراً على استجلاء كوامن الوجدان وسبر معارج الروح، فإن روحاً متفائلة قوية تألقت من خلال البيت الأخير وتركت تأثيرها على الإمبراطور، وإن كانت محبته لحفيده هي التي أملت عليه قراره الأخير.

2 بين أضرحة الأباطرة والسور العظيم

سلالة مينغ (1644–1368)

صاحبة هذه القبور الإمبراطورية هي التي قضت على سلالة المغول (يوان). ومن أشهر أباطرة المغول كبلاي خان، حفيد جنكيز خان، الذي تغنى به الشاعر الرومانسي الإنجليزي كولريدج في قصيدة (جاءته في الحلم أو بتأثير الأفيون) وتعد من أجمل قصائده، وإن لم تكتمل. وقد جرت العادة منذ سلالة

جو، قبل ثلاثة آلاف سنة، أن تبنى القبور الإمبراطورية على تلة أو رابية مرتفعة وفي أبهى حالة لأن الأسلاف الراحلين ينبغي أن يتمتعوا في الدار الأخرى بحياة مترفة. وأشباحهم قد تكون خطرة على الأحياء، لذلك يجعلون سبيل تنقلها عسيراً متعرجاً، وهو محاط بالجبال والأنهار لأنهما حاجزان طبيعيان يحولان دون تقدم الأشباح الشريرة التي تسير عادة بخط مستقيم، كما تقول الأسطورة.

اختار جو دي الموقع محاطاً بالجبال من ثلاث جهات، بينما بقيت الجهة الرابعة منفتحة من الجنوب على سهل بكين حيث يقع مدخل المقبرة والنصب الرخامي الأبيض الجميل ببواباته الخمس الذي يقود إليها عبر طريق رئيسي يعتبر مقدساً. ويعد هذا النصب التذكاري أضخم أثر عمراني من نوعه في الصين. وقد استمر العمل في بناء هذه المقابر الإمبراطورية المنتشرة على مساحات واسعة نحو 200 سنة، مما يوحي بالأهمية البالغة التي يوليها الصينيون لموتاهم وللحياة في العالم الآخر. وخلال جولتنا التي استمرت نحو ساعتين كنت أحاول أن أستنطق رخام الأعمدة وحجارة الجدران وأخشاب السقوف وأحلم بحوار الأرواح الكامنة وراء التماثيل والسلالم والزخارف المتقنة والممرات

المرصوفة لعلها تخبرني شيئاً عن الرجال الذين قاموا ببنائها وإتقانها. كنت أشعر بأنفاسهم وخفقات قلوبهم وخدوش أيديهم لا تزال تتردد أصداؤها في الأجواء والساحات وبين الأشجار، ولم تكن سيرة الإمبراطور الذي اختار ذلك المكان تشغلني ما دامت عظامه المتناثرة في قرارة المثوى قد تحولت إلى رماد. إن أجمل ما توحي به تلك المعالم والصروح الأثرية، بكل ما في خزائنها من مخطوطات وما يزين جدرانها من لوحات وما يتصدرها من تماثيل، هو أن الثقافة بتجلياتها الفنية والأدبية والعمرانية هي وحدها الباقية ماثلة أمام الأجيال، حية مشرقة في ذاكرة التاريخ، وكتاباً مفتوحاً لكل من يحب التزود بالمعرفة وتستهويه القراءة والمتابعة.

الإمبراطور الأول من هذه السلالة (جو يوانجانغ) كان فلاحاً بسيطاً قاد الثورة ضد سلالة (يوان) المغولية وتم اختياره بعد الانتصار لاستلام عرش التنين، لكنه ارتكب في نهاية حياته فظاعات دموية مذهلة أدت إلى إعدام خمسة عشر ألفاً من كبار الموظفين المدنيين والضباط العسكريين المخلصين، في حملة تطهير كبرى، لكي يمهد طريق العرش أمام حفيده. لكن ابنه (جو دي) الذي كان يحمي حدود الشمال استطاع أن ينتزع العرش

لنفسه، ولا أحد يعرف أين انتهى ذلك الحفيد، ولكن اختفاءه ترك الباب واسعاً أمام التكهنات فاختلط التاريخ بالأسطورة في مرحلة مفصلية شهدت أهوالاً من الصراع، وخاصة بين أتباع كونفوشيوس الداعين إلى التزمت والانغلاق وبين طبقة الخصيان الذين انتزعوا مكانتهم بجدارة سواء بين موظفي البلاط الإمبراطوري أو بين البحارة وقائدهم الأعلى جينغ خيه.

فنون يدوية

لست من المولعين بالوقوف طويلاً على الأضرحة، وإن كانت إمبراطورية محفوفة بالأساطير حافلة بدروس غنية تستدعي التأمل والاعتبار، لكن تلك اللمسات الفنية التي تحمل بصمات مبدعيها وتنطوي على هواجسهم الفكرية وحالاتهم الوجدانية المكنونة في شتى هذه الصروح العمرانية الباقية منذ ستة قرون، والتي جعلتها اليونسكو جزءاً من التراث العالمي الذي يحظى بالاهتمام والحفظ والحماية الدولية... أقول إن ذلك كله يترك في نفس العربي الزائر مسحة من الأسى على آلاف الكنوز الأثرية والتحف الفنية التي تتعرض للضياع والتلف والسرقة من أوطاننا كل عام، وربما كل يوم.

كان وقت الغداء يقترب، ونحن على موعد مع أول تجربة ناجحة في تذوق طيبات الصين التي تمتاز بشهرة عالمية، لكنا توجهنا قبيل ذلك إلى معرض لصناعة الخزف والنحاس. الأعمال والنقوش يدوية لم تدخلها التكنولوجيا بعد، وهذا ما يجعل الإبداع الفردي المتميز جلياً في كل لمسة وفي كل لون. ثم انتقلنا إلى معرض آخر لأحجار (اليشب أو الزمرد) الكريمة. وهو نوعان صلب ولين، ويمتاز بألوان مختلفة: أخضر وأبيض وأسود، وإن كان الصلب الأخضر أهمها وأغلاها، كما يقولون.

بأي ابتكار شعري ومهارة مدهشة واصطبار صوفي ينجز الفنان الصيني عمله الرائع وهو يمزج الفن والجمال في تحفة فريدة بألوانها وخطوطها وصفائها الروحاني المشرق، تلك هي بعض مزايا الشرق العظيم وروحانيته الصوفية وروائع التراث الصيني العريق. هنا تتراجع الآلة الجامدة وتغيب عن المشهد وما فيه من أوانٍ وأنسجة ولوحات، ويسكب العامل المبدع شيئاً من حسه وروحه ووجدانه في كل ما يصنع. والمشاهد العربي الزائر لا يملك نفسه من الإعجاب، ويطيب له أن يحتفظ في مكنون ذاكرته بأطياف وصور لا تنسى من تلك الروائع. وفي ختام الجولة الاستطلاعية الممتعة، كان لا بد من فترة استراحة.

وليمة وأولمبياد

كان الغداء حافلاً بألوان الطعام الصيني. والمطبخ التقليدي في تلك البلاد يمتاز بثقافة عريقة وتاريخ طويل وتنوع وافر في النبات والحيوان والتوابل وأنواع العصير والحلوى، فضلاً عن الخبرة الطويلة في تصنيعه والتي تتمتع بشهرة عالمية. وربما كان بط بكين من أشهر الأطباق الصينية، إلى جانب السمك المحلى بالعسل، وكذلك عصير لب المشمش.

كان إلى جوارنا على المائدة ثلة من سياح أمريكيين، وقد راح الحديث يدور بيننا عن الألعاب الأولمبية والمشاريع الرياضية الضخمة التي تقوم الصين بإنجازها قبل الموعد المحدد. سألتهم إن كانت بلادهم ستقاطع الحدث العالمي– كما تطرح بعض وسائل الإعلام. أجاب جورج الجالس إلى جانبي: إن الأولمبياد أكبر وأهم من رغبة أي دولة في مقاطعته. وقال آخر: لا أتصور أن الحماقة ستصل إلى حد الامتناع عن المشاركة. من يريد أن يسجل موقفاً سياسياً ضد إدارة هذه البلاد، يمكنه أن يغيب عن حفلة الافتتاح.

ثم بدأوا يتحدثون بالأرقام قائلين: هناك أكثر من عشرة آلاف لاعب رياضي سيشاركون في مختلف المنافسات، كما أن عدد

الإعلاميين لن يكون أقل من عشرين ألفاً، أما أعداد القادمين من سياح ومشجعين وزوار عاديين فسوف تزيد على المليون بكل تأكيد... لكن الأرقام لغة جامدة تختزل الحياة وتخفي نبضها وحرارتها، لكنها تظل مشحونة بأطياف لا حصر لها من الدلالات والإيحاءات. وكانت خلاصة الحوار: هذا مهرجان عالمي تحتضنه الصين بكل ثقة وجدارة، وليس في وسع أي بلبلة إعلامية أو قوة منافسة أو معادية أن تؤثر فيه أو تقلل من أهميته. إن الروح الرياضية تفقد معناها وقيمتها حين تتدخل الأمزجة السياسية وتحاول المصالح المتضاربة أن تعكر الأجواء... لنترك رياح السياسة والنزاعات بعيدة عن ملاعب الرياضة وأفراح الشباب.

سور وأساطير

زيارة السور العظيم كانت مسألة مختلفة بأكثر من معنى، لا لأنه يعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع إلى جانب الأهرام وتاج محل وشلالات نياغارا.. إلخ، ولا لأن أعمال الترميم والإصلاح والتحصين استمرت فيه نحو ألفي سنة، وإنما هو صرح عالمي هائل ورمز عمراني كبير للجهود البشرية المذهلة التي باشرت بإقامته منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبالعمل اليدوي المضني.

بدأ البناء فيه متقطعاً، كل دويلة من دويلات الشمال المتصارعة تبني سورها الدفاعي الخاص بها. وبعد بضع مئات من السنين، قاموا بوصل مراحل البناء المنفصلة واستكمل السور امتداده سنة 221 قبل الميلاد في عهد الإمبراطور (تشين شي هوانغ) الذي استطاع توحيد بلاده منذ ذلك التاريخ المبكر. وتقول المراجع إن أكثر العاملين كانوا من الجنود، كما كان للمحكومين بالأشغال الشاقة دورهم في جميع مراحل البناء. وهناك أرقام خيالية تشير إلى أن العدد وصل، في بعض السنين، إلى مليون و800 ألف عامل، إضافة إلى 300 ألف جندي. كان السور يمتد عشرة آلاف لي بالمقياس الصيني، أي ما يعادل خمسة آلاف كيلو متر. والوثائق التاريخية اليوم تشير إلى أن طوله يبلغ نحو سبعة آلاف كيلو متر، بينما تكتفي بعض المراجع الغربية بستة آلاف.

جاء مسار السور متعرجاً دون قصد، وكأنه تنين أسطوري هائل، لأن اتجاه القمم والحواف المسننة العليا من الجبال التي أقيم عليها هي التي تحكمت بانعطافاته المتعددة والتواءاته الحادة، ليشكل خطاً دفاعياً حصيناً لا مثيل له في التاريخ، وقد كان قادراً على صد الغزوات الهمجية القادمة من قبائل الشمال. ويذكر المؤرخون أن الحالات القليلة التي جرى فيها اختراق السور

واجتيازه من أحد المعابر الحصينة لم يكن ذلك بسبب نقص أو خلل في بنيته، إنما بسبب ضعف الحكومة وعجزها أمام القوة المهاجمة.

وتشير الوثائق المعاصرة إلى أن كثيراً من مقاطع السور تهدمت، والمقاطع الباقية على حالها تعود إلى عهد المينغ ولا يزيد مجموع طولها على ألفي كيلو متر، وهي متاحة للزيارة والتأمل، ومعظمها يقع على مسافات تتراوح بين 50–130 كيلو متراً إلى الشمال والشمال الغربي من بكين.

قاعدة السور في الغالب تتراوح بين ثمانية أمتار في بعض المناطق وستة أمتار ونصف المتر في مناطق أخرى، وأعلاه يضيق عن ذلك قليلاً لأن الجدران مائلة لتنسجم مع ميلان أعراف الجبال التي بنيت فوقها. ويتراوح ارتفاعه بين ثمانية أمتار وأربعة عشر متراً. وسطح السور طريق معبد يتسع لخمسة أحصنة تعدو جنباً إلى جنب، وعشرة رجال تسير معاً كتفاً إلى كتف. وبعد كل بضع مئات من الأمتار يرتفع برج للحراسة والمراقبة أو للمشاعل التي توقد النار أو تنشر الدخان للإنذار والإعلام وفق نظام محدد كان قادراً على نقل الخبر مسافة خمسمائة كيلو متر خلال ساعة.

وقفة لالتقاط الأنفاس

لم أستطع أن أواصل السير مع المجموعة التي رافقتها أكثر من ساعة، فالمسافة مضنية ما بين صعود وهبوط، وأنا أحمل على كاهلي 72 خريفاً عربياً مثقلاً بالخيبات. لكن الزائر يطل على مشاهد طبيعية ساحرة من تلك الجبال، وإن بدت مخيفة بانحداراتها الحادة وصخورها الداكنة، لكن أشجارها الغابية التي تتسلق المنعرجات والسفوح حتى أعالي القمم تبعث ألواناً من البهجة والانشراح في غلائل النفس. جلست بجانب أحد الأبراج لالتقاط الأنفاس، بينما تابع رفقاء الرحلة الصعود نحو الأبراج المتقدمة الشامخة في عزلتها المتكئة على صفحة الأفق. كان السور يمتد سامقاً مترامياً أمامي وخلفي بلا حدود، ورحت أفكر في آلاف الضحايا من العمال والفلاحين البسطاء والحرفيين المهرة الذي سقطوا صرعى في تلك المزالق والوديان الرهيبة. تذكرت بناء الأهرام وحدائق بابل المعلقة، وبدت لي من بعيد كالدمى أمام هذا التنين العملاق الجليل الذي يقف الخيال عاجزاً عن استيعابه أو الإحاطة بأبعاده، كما يرتد البصر حسيراً دون الوصول إلى أطرافه.

أصوات الباعة من حملة الصور وكتيبات السياحة ومناديل

الحرير والتذكارات المتنوعة تكاد تشغلك حتى عن الاستغراق في التأمل والحوار مع هواجس الذاكرة ونداء الأعماق. لكن طيبة الناس وحسن معاملتهم واستعدادهم الفوري للمساعدة رغم تعثر اللغة، هذه المزايا الإنسانية الدافئة تجعل الغريب يشعر بالمسرة والاطمئنان. وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة تحاملت على نفسي وتابعت المسير هابطاً صاعداً ببطء وإصرار حتى لفحتني نسمة باردة ورأيت بقايا من الثلج في الزوايا الشمالية الظليلة، فكان لا بد من الرجوع، وقد جنحت شمس الأصيل نحو وسادتها الرمادية الشاحبة وراء الجبال.

هناك حكايات وأساطير شتى تدور وتروى متعلقة بمناطق معينة من ذلك السور العظيم. فهذا القسم مقترن باسم قائد عسكري كبير، وتلك القلعة الشامخة منوطة باسم إمبراطور، وذلك المعبر الاستراتيجي أنجزه إمبراطور من سلالة أخرى، وفي تلك الزاوية أقام كاهن ما كوخه مكرساً نفسه للتأمل والعبادة... وهكذا تعجز الذاكرة عن استيعاب الأسماء والتواريخ والأحداث. لكن إشارة صغيرة أو كلمة عابرة تخطف انتباهك فلا تقوى على تجاوزها أو إغفالها، فتصغي إلى الحكاية بملايين الخلايا المتفتحة:

في جوار أحد الأبراج كانت الظباء ترتع بأمان. وفي وسط السقف من ذلك البرج تجويف يشبه الصندوق، يقال إنه كان مأوى لإحدى الظباء التي وقعت بحب راعٍ هناك فتجسدت له في هيئة ملاك واقترنت به! والزائر الغريب يتملى جمال العمارة وآثارها الباقية في جدران السور وأبراجه ومعابره وتسكنه فكرة لا يقوى لها دفعاً: إن صرحاً عظيماً كهذا لا يمكن أن يكون وراء إنجازه إلا الحب، الحب الذي يتسامى حتى يبلغ أصفى درجات العشق الصوفي: بدءاً من عشق المرأة حتى الالتحام بتراب الوطن والذوبان في روح الطبيعة/الأم، روح الكون.

ورغم التعب الجسدي الشديد الذي يذكرك بالأيدي التي أبدعت في بناء السور، حين تنطلق بك الحافلة عائدة إلى أحضان العاصمة، تتلمس مشاعرك وأفكارك فترى أنها معطرة بأنداء تلك الجبال وترى نفسك مغسولة من الأعماق... ولا تملك إلا أن تعيش حالة شعرية غامرة، فتحاول أن تستعيد صوراً من القصائد والأغاني التي احتفى بها تاريخ السور وترددت عبر أرجائه، وكأن أولئك الشعراء والكهنة الذين اعتكفوا في زوايا تلك الجبال قد نقلوا إليك قبساً من تجربتهم الصوفية المشرقة، وكأن أنفاسهم لا تزال كامنة في نضرة الشجر وأنسام الذرى وهمسات الأنهار والوديان.

حكايات مؤثرة

يخترق السور العظيم أكثر من معبر حصين، أشبه ما يكون بالقلعة. جيايوغوان واحد من تلك المعابر الصخرية المنيعة. لكن دموع امرأة أدت إلى تدمير قسم منه! كانوا قد أخذوا زوجها للعمل في السور وانقطعت أخباره عنها سنوات، وهذا ما دفعها للبحث عنه حتى وصلت إلى موقع العمل فقالوا لها: إنه مات! صعقت بالخبر الفاجع وانفجرت في نوبة بكاء حتى تصدع قلبها وقضت حزناً عليه، وهذا ما أدى إلى انهيار شطر من السور. والحكاية تعني أن مئات الألوف من عامة الشعب كانوا مرغمين على العمل في بناء هذا الخط الدفاعي الكبير، وإن لم يعد له من قيمة دفاعية في هذا العصر.

لم تقتصر المآسي على البشر الذين عملوا هناك وضحوا بحياتهم، ولكن الطيور كذلك دفعت نصيبها من الفاجعة في ذلك المعبر. تقول الحكاية: كان هناك زوجان من السنونو بنيا عشهما داخل الحصن، وكانا يسعيان لالتقاط قوتهما طوال النهار ثم يأويان إليه قبل إغلاق الأبواب. وفي أحد أيام الشتاء القارسة، عادت الأنثى وتأخر الذكر. وحين عاد وجد الأبواب موصدة وكانت ليلة قاسية البرودة فقضت عليه. وفي الصباح، عندما

اكتشفت رفيقته ما حدث دخلت عشها وراحت تنوح بأسى ولوعة حتى انفطر قلبها ولحقت به. وتقول الحكاية إن من ينقر على الجدار بحجر يتناهى إلى سمعه زقزقة أشبه ما تكون بالنواح. وتزداد الحكاية عمقاً وتأثيراً حين تخرج من إطارها الفني إلى مستوى الرمز، فالحديث عن الطيور وسائر الحيوانات يشير إلى آلاف الأسر المنكوبة وعشرات الألوف من العمال البسطاء الذين دفعوا حياتهم أثناء العمل الشاق في تلك الجبال الوعرة العسيرة.

ولعل الماعز هو الحيوان الوحيد الذي احتفظت الحكاية بمآثره وما زالت تتغنى به وتردد بتقدير بالغ ما فعله أثناء بناء إحدى المراحل الصعبة من السور. كان مكان صنع الآجر بعيداً والوصول إلى موقع السور في أعالي الجبل عسيراً. ولاحظ أحد الرعاة في الجوار ما يكابده عمال النقل من مصاعب، فخطر له أن يحزم عدداً من قطع الآجر على ظهر الماعز ويسوقها نحو السور، فتسلقت الجبل بسهولة. تنبه العمال لذلك وراحوا يستنجدون بهذا الحيوان المقدام حتى ساعدهم بإنجاز عملهم بنجاح.

«المرأة.. لا عمل لها»

جلالته قال

لكنه مات ملتاعاً بها!

في اليوم التالي، كانت زيارة المدينة المحرمة في رأس القائمة. وقبل أن تسأل: «لماذا محرمة؟» تجيبك الأسطورة: إن قدماء الصينيين كانوا يعتقدون أن الإمبراطور ابن السماء، وهو الحاكم المطلق على الأرض. وحين لاحظوا أن النجوم تحيط بنجم القطب الشمالي، تصوروا أن راعي السماء يقيم هناك فأطلقوا على القبة المحيطة بذلك النجم اسم «الحظيرة السماوية البنفسجية». وقد اعتبروا أن القصر الإمبراطوري هو مركز بلادهم التي أطلقوا عليها اسم «المملكة الوسطى»، قلب العالم، ومركزها هذه المدينة التي أمر ببنائها (جو دي) ثالث إمبراطور في سلالة مينغ لتكون بلاطاً خاصاً به وبأركان حكمه وزوجته ومحظياته، وكان دخولها محظوراً على العامة حتى غادرها الإمبراطور الأخير سنة 1924، وذلك بعد 11 سنة من تنازله عن عرش التنين. وفي سنة 1987 وضعتها اليونسكو في قائمة التراث العالمي الذي يجب حمايته والمحافظة عليه.

يروى أن تجهيز مواد البناء من خشب وحجارة وآجر استمر عشر سنين، كما استغرق بناؤها أربع سنوات أُخر. ويطلقون اليوم عليها اسم «متحف القصر» إذ يضم نحو 900 ألف قطعة من تحف فنية وآثار ثقافية، وتقع هذه المعالم التاريخية إلى الشمال

من ميدان السلام السماوي «تيان آن مين» ذي الشهرة العالمية برحابته الفريدة وأحداثه الكبرى.

المدينة مستطيلة الشكل، قائمة على محور شمالي–جنوبي، يبلغ طولها 960 متراً، وعرضها شرقاً– غرباً 750 متراً، وتشكل أضخم مجمع من القصور الملكية المبنية من الخشب في العالم. ولذلك تعرضت أجزاء منها للحرق والدمار أكثر من مرة، ثم أعيد بناؤها. وهي محاطة بسور حجري ارتفاعه عشرة أمتار وقد أقيمت عند زواياه أربعة أبراج شاهقة، ويحيط به خندق مائي عرضه 52 متراً وعمقه ستة أمتار.

البوابة الجنوبية تسمى الميرديان، إشارة إلى خط الزوال (منتصف النهار)، والتسمية تدل على مدى اهتمام النظام الإمبراطوري بعلوم الفلك. والبوابة صرح ضخم يرتفع 38 متراً، وهي مصممة على شكل حرف (U) نقلوب وعلى جانبيها أربعة أبراج. وهي أهم بوابات المدينة الأربع، ويخترقها خمسة مداخل تؤدي إلى خمسة جسور قائمة على «النهر الذهبي»، وبعدها تمتد ساحة واسعة تبلغ مساحتها 26 ألف متر مربع، ولا بد من عبورها للوصول إلى بوابة الانسجام الأسمى، حيث يرتفع «قصر العربية الذهبية» 35 متراً وعرضه نحو 64 متراً وعمقه يزيد قليلاً عن 37

متراً، وهو مبني على مصطبة متدرجة الارتفاع ذات ثلاثة مستويات، ويسمى أيضاً «قاعة الانسجام الأسمى» ويعتبر قلب المدينة المحرمة.

كنت أعبر البوابة الرئيسية والجسور وساحة الانسجام الأسمى مع أفواج الزوار، وأنا أفكر بآلاف الحكايات والمكائد والأسرار والهمسات التي دارت في زوايا هذه المدينة التي ظلت طوال 500 سنة صندوقاً مغلقاً خاصاً بالأباطرة وأسرهم وحاشيتهم، وكان شعوري يؤكد بأني من زمن مختلف، زمن الشعوب والثورات العلمية التي جعلت العالم قرية واحدة مشرعة الأبواب والعيون والأحلام على الآفاق والكواكب المجاورة. لكني فوجئت بالدليلة تقطع تيار التداعيات وتقول: إن هذه القصور تضم 9999 غرفة ونصف الغرفة. وتساءلت باستغراب: «نصف غرفة... كيف؟ ولماذا؟!» وكان الجواب بسيطاً واضحاً: السماء وحدها تحتضن رقم الكمال، وهو عندهم عشرة آلاف، وهذا يعني أن الإنسان على هذه الأرض لا يمكن أن يبلغ درجة الكمال، وإن كان من سلالة إمبراطورية شبه مقدسة. وفي تلك اللحظة بزغ في خاطري قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾. إن ذلك النصف الذي نتوهم أنه صغير هو الذي يفصل، ولو بخط

رمزي، بين عجز المخلوق الفاني وعظمة الخالق السرمدي. وهنا تبدأ محنة التأمل ومشقة الدروب الشائكة ومزالق التأويل في حقول الفلسفات والعقائد والحضارات، وتلك قصة أخرى تظل خارج السياق.

وقائع ومأساة

يبدو أن دليلتنا الجميلة خطفتها الأسطورة بعيداً فبالغت بعدد الغرف لأن المدونات التي تذكرها الكتب تقول إن العدد الحقيقي هو 8707 غرف. وتنقسم القصور إلى قسمين: البلاط الخارجي في الجنوب، وهو خاص بالإمبراطور وأركان حكمه، ومن هناك تدار شؤون البلاد، وهذا القسم مؤلف من ثلاث قاعات كبرى. أما القسم الداخلي في الشمال، فهو لسكن الإمبراطور وأسرته من إمبراطورة وزوجات ومحظيات وخصيان. وتبالغ الإشاعات في تضخيم عدد المحظيات لتتحول الواقعة التاريخية إلى أسطورة. يقول التاريخ كان عدد المحظيات 700 امرأة، لكن الأسطورة جعلتهن ثلاثة آلاف. وهن مصنفات إلى ثماني مراتب، تجيء الإمبراطورة في أعلى مرتبة، وهي تلك التي حظيت بأن تكون الزوجة الأثيرة. وهناك جداول وبيانات تبين أنواع القماش والحلي

والنقوش والأزياء وألوان الطعام المخصصة لكل مرتبة من تلك المراتب. ويذكر التاريخ أن الصبايا المجلوبات من كوريا كن أجمل المحظيات وأسماهن قيمة ومكانة لدى عدد من أباطرة عرش التنين.

وتطوف بين هذه القصور، وفيها كنوز وتحف وتماثيل كثيرة تسترعي نظرك وتستأثر بإعجابك. صورة شجرة الحب أجمل ذكرى تحملها من هذه المدينة، وهي شجرتان متعانقتان لتشكلا شجرة واحدة. وهناك تمثالان لأسدين رابضين أمام أحد القصور، وهما متشابهان إلى حد كبير، لكنك حين تدقق بالتفاصيل تجد أن الأسد وضع يده اليمنى على كرة (لعلها الكرة الأرضية) بينما وضعت اللبوة يدها اليسرى على شبل وليد. ومن الملاحظ أن كل قاعة تحمل اسماً معيناً، فهذه قاعة الانسجام الأسمى، وتلك قاعة الاتحاد والسلام، وثالثة قاعة الصفاء السماوي، وأخرى قاعة السكينة الأرضية.. إلخ.

قاعة الإمبراطورة صغيرة محدودة الأثاث، ويقال إن ذلك من أجل أن تحافظ على الطاقة فلا تذهب هدراً، وهناك لوحة من كلمتين تتصدر الجدار تمر بها عابراً وتظنها زخرفة خطية بالحبر والفرشاة العريضة، لكن المترجمة تفاجئك قائلة: هذه اللوحة

بخط الإمبراطور ومعناها «المرأة لا عمل لها»! لكن التاريخ يطرح تلك العبارة في سلة المهملات ويؤكد أن ما فعلته إحدى النساء حين صارت إمبراطورة وسيطرت على مقاليد الأمور يعجز عنه أشد الرجال قسوة وشراسة واستهتاراً.

ولعل أجمل التحف التي استمتعت بتأملها في إحدى القاعات كانت مجموعة كبيرة من اللوحات الفنية، بعضها تمثل صور التنين وطير الفينيق الخرافي، وأكثرها زخرفة بالخطوط والكلمات. وفوجئنا بالفتى المشرف على المعرض يشير إلى رجل ستيني يجلس منكباً على عمله في صدر القاعة ويقول لنا: معظم هذه اللوحات بريشة هذا الفنان، وهو ابن خال الإمبراطور الأخير (أو ابن عمه). حاولت فاطمة أن تلتقط له صورة، لكن المشرف لم يسمح لنا بالتصوير. لم يرفع الفنان نظره نحونا، بل ظل مستغرقاً في رسم لوحة شعرية ويده تخط بالفرشاة تلك الرموز الصينية بطريقة صوفية مهيبة وكأنه سارح في سبحات صلاة.

وهناك قصة مؤثرة ترويها الحجرات الجانبية عن الإمبراطور غوانغشو الذي قاد حركة الإصلاح سنة 1898 تسانده زوجته جين. لكن الحركة لم تدم طويلاً، فقد قضت عليها الإمبراطورة دواغر تسيشي، وأمرت باعتقال الإمبراطور داخل القصر، كما

اعتقلت زوجته وأمرت بأن تلقى في البئر لتموت غرقاً. وقفت دقائق أتأمل الغرفة المتواضعة التي قضت فيها الضحية أيامها الأخيرة، وكانت البئر المجاورة مسدودة بصخرة. ويبدو أن الصخر أرق وأشد حناناً من قلب تلك الإمبراطورة الظالمة. ويقال إن شقيقة الضحية، وقد صارت محظية ذات مرتبة عالية في البلاط، هي التي حافظت على ذكرى أختها المغدورة واحتفظت بآخر آثارها. ويتأمل الزائر الحجرة الصغيرة الموصدة والبئر المردومة ولا يتمالك نفسه من الشعور بالأسى والرثاء لمصير تلك الصبية الرائعة. ويبقى العزاء كامناً في عدالة السماء، فبعد موت الإمبراطور السجين بسنة خطف الموت روح تلك الإمبراطورة الطاغية.

حين تخرج من هذه المدينة متعباً ولا تعثر على سيارة أجرة لأن الوقوف ممنوع في الشارع، تأتي دراجة هوائية بثلاث عجلات ومقعد خلفي يتسع لشخصين فيعرض عليك سائقها الانتقال لقاء أجر معين، هو في الغالب أعلى من سيارة الأجرة. وبعض تلك الدراجات نارية تقودها النساء. ولا يبدو الانتقال بهذه الواسطة مستحباً في دولة ما زالت تسير في الخط الاشتراكي، وإن كان مطعَّماً بإجراءات الإصلاح والانفتاح.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر وحان وقت الغداء، لكن ساحة «السلام السماوي» تغريك بالتنقل في جهاتها المترامية وتأمل أمواج البشر القادمين إليها أو اختيار مقعد قريب إلى جوار الجالسين في حدائقها. لكن فتاتين (سنكتشف بعد التعارف أنهما معلمتان) لاحظتا حيرتنا فبادرتا إلى فتح الحديث معنا والسؤال إن كنا نحتاج إلى مساعدة. سألناهما أن يدلانا إلى أقرب مطعم، ودعوناهما لمشاركتنا في الغداء، لكن الطريق كان طويلاً. عبرنا الساحة معاً ومضينا في شارع طويل، وبعد نحو عشرين دقيقة قادتنا المصادفة السارة إلى مقهى لتقديم الشاي الصيني على الطريقة التقليدية، فتناسينا جوعنا وتبعنا صبية مليحة الوجه أنيقة المظهر فاختارت لنا حجرة صغيرة احتلت صدرها وحولها عدة الشاي، بينما جلسنا مع المعلمتين اللتين تطوعتا مشكورتين بمهمة الترجمة. كان حلم فاطمة أن تحضر مثل هذه الحفلة فتركت لها متابعة التفاصيل وتسجيلها، واكتفيت بارتشاف ثمانية أو تسعة فناجين صغيرة– وربما عشرة، لا سبيل إلى التذكر!– من مختلف أنواع الشاي... وبعد نحو ساعتين حافلتين بسلسلة من الطقوس المدهشة اكتشفت أن تكاليف الجلسة، مع مراعاة الضيوف، 160 دولاراً. ولا شك أن نصف هذا المبلغ كان يكفي للغداء. لكن أهمية الحفلة ومتعة الاكتشاف

وبراعة الصبية في صنعتها كانت أجمل وأهم وأغنى فائدة من كل طعام.

قصر وحكايات

تبدو القصور الإمبراطورية في الصين مصممة وفق محور شمالي جنوبي، وسطه مخصص لابن السماء، وتبقى الأجنحة المحيطة للحاشية. وتمتاز تلك القصور بسعة الحدائق المحيطة بالأبنية، وقد جرى تصميمها حافلاً بالشعر والفن التشكيلي والتناغم الموسيقي ومحاكاة الطبيعة بشتى ملامحها السهلية والجبلية، الصخرية والمائية، الأليفة والوحشية. وفي الغالب تزيد المساحة المخصصة للبساط الأخضر وجداول المياه على أربعة أو خمسة أضعاف المساحات التي تشغلها الأقسام المعمورة. وحين تفكر بزيارة القصر الصيفي، يسبقك الشعر والحكاية حيث تتشابك الخرافات والأساطير بالوقائع التاريخية. فالحكاية، موشاة بالشعر، تجمع بين مختلف العناصر والخيوط وتستند في أساسها إلى حدث تاريخي أحاطه الخيال الشعبي وتعدد الروايات الشفوية بهالات جذابة ملونة من الغرابة والتشويق والغموض.

من هذه الحكايات أن القصر كان منتجعاً للإمبراطورة دواغر

تسيشي (1835–1908) التي ظلت سبعاً وأربعين سنة وبضعة أشهر الحاكم الفعلي المطلق طوال عهدين من الحكم الإمبراطوري. كانت امرأة فاسدة داهية، حكمت من وراء ستار باسم ابنها وابن أختها اللذين لم يكونا أكثر من دميتين في يدها. وكانت في شبابها من أجمل محظيات البلاط، وقد تقدمت صاعدة سلم المراتب حتى صارت زوجة وإمبراطورة. استلمت مقاليد الحكم بيد من حديد، بعد مرض الإمبراطور وموته دون أن يخلف وريثاً فجعلت ابنها، وهو ابن ست سنين، إمبراطوراً لكنه توفي قبل أن يتجاوز الثامنة عشرة. ثم دفعت بابن أختها لاستلام العرش وحظيت منه بلقب «الأم المقدسة الإمبراطورة دواغر»!. وتقول كتب التاريخ إن مخدع نومها كان في قصر معزول بالماء عن قصور العمل وإدارة شؤون البلاد، وكانت تنتقل إليه بمركب حتى تنعم بنوم آمن مريح. وهناك قصور جانبية وشرفات كانت تشاهد منها عروض الأوبرا وغيرها من العروض الفنية التي كانت مولعة بها. ويرى المؤرخون أن حكمها الاستبدادي كان سبباً حاسماً في سقوط العرش الإمبراطوري وزواله.

ورغم أن هذا القصر تعرض للحرق والنهب والدمار على أيدي القوات الفرنسية والبريطانية في 1860، إلا أن «دواغر»

استطاعت أن تستولي على ميزانية الأسطول الإمبراطوري وتعيد بناءه لتمارس حكمها وعبثها من هناك، بدلاً من المدينة المحرمة مباشرة، لأن قانون البلاط الإقطاعي لم يكن يسمح للمرأة أن تحكم بشكل معلن. وقد تعرض هذا القصر مرة ثانية للتدمير على أيدي قوات الحلفاء الثمانية في 1900.

ومن الأمور التي تروى عن دواغر تلك أنها كانت تحب الطعام إلى درجة خيالية حتى إن كلفة وجباتها اليومية بلغت مائة أونصة من الفضة، ويقال إن لائحة طعامها كانت تضم 400 صنف من المشهيات ونحو 4000 طبق من ألوان الطعام المختلفة لتختار منها ما تشاء. وكانت مولعة بنوع معين من الحلوى. وفي إحدى المهام الرسمية التي قامت بها بعيداً عن القصر لم تأخذ صانع الحلوى معها فأحضروا طاهياً آخر لذلك، لكنها لم تستسغ الحلوى التي صنعها ذلك المسكين فأمرت بجلده أربعين جلدة! وكانت تقف بصلابة ضد حركة الإصلاح التي قام بها ابن أختها الإمبراطور غوانغشو. لكن محاولته لم تدم إلا 103 أيام، فقد تمكنت هذه الإمبراطورة من خنق الحركة والقضاء على أهم رجالها، مستغلة جو الفساد المستشري في البلاط.

3

كيف يدخل الشعر في نسيج الحياة وتصميم الحدائق؟

يقع القصر الصيفي في الطرف الشمالي الغربي من بكين، وعلى مسافة 20 كيلو متراً من مركز المدينة. كانت أجرة السيارة التي حملتنا إلى هناك نحو خمسين درهماً، وهذا المبلغ يكفيك لوجبة متوسطة في مطعم أمريكي أو إيطالي من ألوان الوجبات السريعة.. ولا تحصل به على أكثر من طبق متواضع في مطعم صيني فاخر. وفي الطريق

الطويل إلى القصر، كانت مشاريع القرية الأولمبية قائمة على الجانبين في أكثر من موقع. لم تكن الشوارع مزدحمة، فلم تستغرق المسافة أكثر من أربعين دقيقة، لكن طريق العودة أخذ وقتاً أطول وكانت الأجرة مضاعفة.

بقي الإمبراطور (تشيانلونغ) على عرش التنين ستين سنة، وقد أمر ببناء هذا القصر في 1750 ليقدمه هدية لأمه في عيد ميلادها، واستمر البناء خمس عشرة سنة، وكانت التكاليف خيالية إذ بلغت نحو أربعة ملايين ونصف مليون أونصة من الفضة. ومع ذلك، تعد فترة حكم هذا الإمبراطور العهد الذهبي في سلالة تشينغ، وهي آخر سلالة حكمت الصين.

يبدو القصر من بعيد وهو يتسلق سفح جبل على الضفة الشمالية من بحيرة (كونمينغ) التي كان علينا عبورها بمركب صغير لا يتسع لأكثر من ثلاثين راكباً. وتشير الخرائط إلى أن القصر محاط من الغرب والشمال ببحيرة خلفية لم نستطع الوصول إليها، بل اكتفينا بإلقاء نظرة على جانب منها حين تابعنا صعودنا حتى القمة التي توزعت بين صخورها أبراج البخور حيث يقوم الرهبان البوذيون بأداء الطقوس فيها.

كثير من المباني والتماثيل واللوحات تجتذب النظر وتنعش

النفس بروعتها وحسن تناسقها، ولكن أجمل ما في هذا الصرح العمراني، المتدرج إلى الأعالي، تلك الحدائق الجميلة القائمة حوله بأشجارها وأزاهيرها المتنوعة، بتلالها وجداولها وصخورها ودروبها المزودة بسلالم حجرية ومعدنية وممرات محفورة كالأنفاق عبر الصخور. والجميل أن تجد في هذه الحدائق تصاميم تقليدية مختلفة تمثل معظم أقاليم الصين، فضلاً عن تنوع الأشجار. وتقول الإحصاءات إن عدد زوار القصر لا يقل عن عشرة ملايين زائر في السنة، أي خُمس ما يزور البلاد سنوياً.

لقد صعدنا أكثر من مائتي درجة ونحن ننتقل من قصر إلى قصر أعلى، وفي القمة كانت أبراج حرق البخور. أحد هذه القصور خاص بالإمبراطور، وآخر مسرح لمشاهدة عروض الأوبرا، وثالث لتأمل السماء عند إطلالة القمر أو في أحوال انهمار المطر.

تماثيل وأبراج

الصخور المنخورة، وكأن عوامل الطبيعة قامت بتشكيلها، أقيمت في أرض الحدائق كالتماثيل وهي تشبه بعض الحيوانات. ومن هذه المناظر الجميلة زورق رخامي يرسو على الشاطئ مشيراً إلى المجد الإمبراطوري الغابر. ولعل أهم التماثيل صف من

العلامات الصخرية تمثل الأبراج الفلكية الصينية، وهي اثنا عشر برجاً سنوياً، وليس شهرياً كالأبراج العربية والغربية. إن مفهوم الأبراج عندهم قائم على الدورة الفلكية التي تتكرر كل اثنتي عشرة سنة. ربما تستغرب أن ترى رمز الفأر أول الأبراج. لكن الأسطورة تقول إن أحد الأباطرة القدماء أراد أن يخصص علامات لقياس الوقت فقام بتنظيم مسابقة بين الحيوانات لعبور النهر، وقد كان الثور هو السابق لولا أن الفأر المحتال قفز على ظهره دون أن يدري. وحين اقترب الثور من الضفة قفز الفأر إلى الأرض وكان هو الأول، وجاء الثور بعده. ولأن الخنزير البري خامل فقد جاء في آخر السباق. وجاءت الحيوانات الأخرى بين الثور والخنزير حسب الترتيب الآتي: النمر، الأرنب، التنين، الأفعى، الحصان، الحمل، القرد، الديك، الكلب. ونحن في سنة الفأر الموصوف بالخيال والسحر والتسامح مع من يحب، وإن كان أحياناً مزاجياً وميالاً للانتقاد، وربما اغتنام الفرص. ويقال إن معظم المتورطين في الكتابة ولدوا في دائرة الفأر. وفي اليابان التي تبنت الأبراج ذاتها يعتقدون أن الحصان أخطر العلامات لأنه يسمى «الحصان الناري» في دورته الخامسة، أي كل ستين سنة.

كثير من الكتاب والشعراء تغنوا بجمال هذا القصر وحدائقه

الغنية الزاهية وبحيرته الواسعة. ومن حق الشعر أن يكون مسك الختام بعد زيارة هذه التحفة العمرانية المدهشة. يقول الشاعر جينغ مينغ وهو يتأمل تلك المعالم:

السماء لا تزال بهية الزرقة في الشرق.

وأن تغرب الشمس عن البحيرة في الربيع

تلتحم السماء والشرفات في نسيج واحد.

وتأتلق الصورة في زوجين من الطيور البيضاء

شبيهة بمشهد من جنوب نهر اليانغسي.

معبد لاما

كان الرابع من إبريل/ نيسان يوم الاحتفال باستقبال الأسلاف الراحلين، فآثرنا أن نقوم بزيارة أحد المعابد لمشاهدة الاحتفالات الشعبية بذلك العيد. وفي بكين وحدها عشرات المعابد، وكان معبد لاما أكثر جاذبية من سواه لأنه يمتاز بطراز بوذي خاص بطائفة القبعة الصفراء، وهي تنتمي بأصولها إلى التيبت. واللون الأصفر في تقاليد الصين خاص بالإمبراطور، ولعله لا يخلو من

مسحة قداسة. لم يكن معبد لاما بعيداً عن مركز المدينة فتوجهنا إليه سيراً على الأقدام، معتمدين على طيبة الناس الذين تسألهم فيبادرون إلى مساعدتك باللغة الوسيطة، إن أمكن، وبالإشارة ولغة الأيدي حين تعجز الكلمات، وبالكتابة أحياناً، وبخاصة أن طريقة اللفظ ومخارج الحروف تختلف من بلد إلى آخر أكثر من اختلاف اللغة الإنجليزية في بريطانيا عنها في أمريكا. أخذت المسافة منا نحو ساعة من المسير في شوارع بكين القديمة، وكان من الممكن اختصارها بعشر دقائق لو أخذنا المترو. لكن متعة الاكتشاف والتسلي بقراءة وجوه العابرين وتصفح واجهات الأبنية والمؤسسات وأنواع المحال والدكاكين التي تعبرها في طريقك تضفي على المشوار مسحة جذابة خاصة من البهجة والتفكر والانشراح، بينما تستقبلك بشائر الربيع بألوان من الأزاهير وخضرة الأشجار النضرة.

ومعبد لاما هو الوحيد في شرق الصين الذي يمتاز بطراز بوذي ترى فيه عدة أنماط تجمع بين أساليب البناء المتمايزة في التيبت ومنغوليا وهان، ويكاد يشكل جزيرة مختلفة عما حوله، سواء بمسوح رهبانه ذات اللون البني الداكن أو بمبانيه وأبراجه وتماثيله ومحتوياته. بعد الحصول على بطاقات الدخول وعبور

البوابة، يستقبلك ممر طويل وسط حديقة وارفة الأشجار. وفي نهاية الممر، إلى اليمين يقع برج الجرس، وإلى اليسار برج الطبل وهما لتحديد مواقيت الصلاة وأداء الطقوس. وأمام كل منهما أشجار مزهرة وتماثيل وحلة معدنية كبيرة تملأ عادة بالمياه، لكنها كانت تحتوي على مئات القطع النقدية الورقية والمعدنية التي يتبرع بها الزوار. ويبدو أن القيمين على المعبد لا يهتمون بتلك النقود بل تركوها تبلى تحت الشمس والمطر، دون أن تمتد إليها يد طامع أو محتاج. ولعل هذا الزهد بالمال والترف من أهم مزايا الصوفية البوذية، وإن بدت المعابد والتماثيل مترفة في زخرفتها إلى حد الإسراف.

والمعبد مجمع من الأبنية تحيط به حديقة جميلة، بني في أوائل القرن الثامن عشر ليقيم فيه أحد النبلاء الذي انتقل سنة 1723 إلى المدينة المحرمة ليرتقي العرش باسم الإمبراطور يونغجينغ، وبعد وفاته قام ابنه وريث العرش، بتحويل المباني إلى دير تابع لطائفة القبعة الصفراء، إحياء لذكرى والده.

تتصدر الفسحة بين البرجين قاعة الملوك السماويين، وهي الأولى من خمس قاعات مخصصة للعبادة، وفيها تمثال كبير لميتريا بوذا المستقبل – أو بوذا الذي سيأتي، كما يقولون –

وحوله تماثيل الملوك الأربعة. وبعد أن تثقل رأسك بجمال الفن والعمارة والمخطوطات التي تقف أمامها حيران عاجزاً عن فك طلاسمها الصينية، تدعوك الساعة الثانية إلى استراحة غداء خفيف أمام منصة متحركة خصصت للشواء وإعداد ألوان متنوعة من الطعام، ربما كانت الذرة المسلوقة أطيبها بعد تشكيلة من المعجنات لا تقوى على حفظ أسمائها.

معبد السماء

في الركن الجنوبي الشرقي من أحياء بكين القديمة، يقع هذا المعبد الذي كرسه الأباطرة طوال القرون الخمسة الأخيرة لإقامة حفلاتهم الدينية وتقديم الابتهالات للسماء حتى ترعى المواسم الزراعية وتجود عليهم بوفرة من محاصيل الحبوب. وتذكر المدونات التاريخية أن ما يربو على 600 احتفال ديني قام به 22 من أباطرة السلالتين الأخيرتين (مينغ وتشينغ). يعود تاريخ البناء إلى 1420 وقد كان دخوله قبل سنة 1918 محظوراً على العامة كالمدينة المحرمة. وفي سنة 1961 جرى تسجيله في لائحة المعالم التاريخية التي تقوم الدولة بترميمها والإشراف على حمايتها. وفي سنة 1998 وضعته اليونسكو في عداد التراث

العالمي الذي تسهر على صيانته. وهو يعتبر أكبر أثر عمراني من نوعه في العالم ما زال باقياً على حاله. تبلغ مساحته الكلية نحو 273 هكتاراً (والهكتار عشرة آلاف متر مربع)، ولا تزيد مساحة المعابد المعمورة على خمسة في المائة من تلك المساحة والباقي للحدائق والممرات والساحات المحيطة به. وأجمل ما فيه ثلاثة معالم تمتد على خط مستقيم: 1– المحراب الدائري المكشوف في الجنوب، وهو تلة مسطحة واسعة ترتفع نحو خمسة أمتار، ومزينة بثلاثة أفاريز جميلة حول شرفات رخامية متدرجة، يتم الصعود إليها من أربع جهات على سلالم حجرية حافظت على الرقم المقدس فكان لكل سلم تسع درجات. وهذا المحراب محاط بسورين: داخلي بشكل دائرة تمثل السماء قطرها 102 متر، وخارجي مربع طول ضلعه 168م. وبعد ذلك يقوم معبد السماء بشكله الدائري وقبته المخروطية المزخرفة من الداخل بأشكال فنية جميلة تتوسطها صورة تنين ذهبي. والمعبد مبني على مصطبة ترتفع ثلاثة أمتار، وبين سلم الصعود وسلم الهبوط لوحة كبيرة مائلة نقش عليها تنينان يلهوان بلؤلؤة. ويحيط به سور دائري ارتفاعه ثلاثة أمتار وربع المتر وطوله 192م متوج بآجر أزرق لامع ويسمى «حائط الصدى» لأن من يهمس قربه في أي جانب منه يمكن سماعه في الجانب الآخر.

وأجمل هذه المعالم الدائرية ذات القباب المخروطية المعبد الخاص بتقديم الطقوس ورفع الابتهالات من أجل وفرة محصول الحبوب. وهو مؤلف من ثلاث طبقات ذات أفاريز وارفة كالمظلات، وبناؤه يرتفع 32م ويقوم أيضاً على مصطبة مرتفعة ذات شرفات ثلاث متدرجة الارتفاع ولها أفاريز مزخرفة، وثمة ثمانية سلالم حجرية مدرجة من حوله تقود إليه.. ولا غرابة أن في كل سلم 27 درجة، أي تسع درجات لكل شرفة.

وطقوس العبادة التي كانت تجري في المعبد تعد جزءاً من عبادة الطبيعة لدى قدماء الصينيين، وهي جزء من ثقافتهم المتوارثة في هذا الشأن. وخلال قرون طويلة كانت الطبقة الإقطاعية هناك تعتقد أن الإمبراطور ابن السماء وهو سيد الأرض والبشر، ولعله كائن مقدس يرمز للرب السماوي وسيد الكون في الأعالي. وكانوا يرمزون للسماء بالدائرة وللأرض بالمربع، لذلك نرى أن هذا المعبد –وكذلك السور المحيط به– دائري في قسمه الشمالي ومربع في الجنوب. ومن أهم الأشجار في حدائقه الصنوبر والسرو، وتبدو الأشجار المعمرة بوضوح وقد ترك الزمن آثاره على جذوعها الهرمة وفروعها المتكسرة.

وتشكل الساحات الواسعة حول المعابد في العطل والأعياد

حلبات مكشوفة لإقامة الحفلات الشعبية من رقص وغناء وعزف على الآلات التقليدية المتوارثة. كانت مصادفة جميلة أن زيارتنا له جاءت في العطلة الأسبوعية، وكان ألوف الزائرين يعقدون حلقات شعبية لممارسة هواياتهم الرياضية وتقديم مهاراتهم الفنية من خفة ورقص وموسيقى وغناء، وتظل الساحات مفتوحة أمام جميع الراغبين بالمشاركة بهذا المهرجان العفوي من الفرح والانطلاق والمتعة البريئة. ويعتبر القصر رمزاً وحاملاً للثقافة الصينية العريقة، فهو لا يقتصر على حفلات العبادة وإنما يعبر عن التاريخ والفلسفة والفلك والرسم والموسيقى والطقوس والتقاويم.

وبعد ما يربو على مائة سنة من بنائه قام أحد الأباطرة بفصل الاحتفالات الأرضية عن الاحتفالات المكرسة للسماء، وأمر ببناء معبد الأرض في شمال العاصمة لكي يبقى هذا المعبد بكل جماله العمراني وأبهته واتساع ساحاته وحدائقه خاصاً ومكرساً للسماء.

حديقة بيهاي

حديقة عامة تقع إلى الشمال الغربي من المدينة المحرمة، وتعد أقدم وأجمل الحدائق الإمبراطورية الباقية على حالها في

العاصمة الصينية، وقد أخذت اسمها (البحر الشمالي) أو (البحيرة الشمالية) من هذا الموقع. وسبب التباس اسمها بين بحر وبحيرة يرجع إلى التشابه اللفظي بن الكلمتين في المغولية والصينية. ويقال إن الإمبراطور المغولي كوبلاي خان، حفيد جنكيز خان، استقبل ماركو بولو في قصره هنا. ويرجع تاريخ الحديقة إلى ما يزيد على ألف سنة. وقد جرى تصميمها وفق أسطورة صينية تقول إن في المحيط، إلى الشرق من خليج بوهاي، ثلاث جزر جبلية، وفيها تحيا كائنات سماوية لديها دواء عشبي يمنح الخلود لمن يتناوله من البشر. وقد حاول أكثر من إمبراطور الحصول على تلك العشبة السحرية بلا جدوى، ورأى بعضهم أن يبني نموذجاً مشابهاً لتلك الجزر. البحيرة هنا تمثل المحيط، وفي وسطها جزيرة صناعية مرتفعة قليلاً، انتقلنا إلى ضفتها بزورق صغير، وقد أقيم في مركزها مبنى يسمى «الداغوبا البيضاء» يبلغ ارتفاعها 118 قدماً، وهي صرح مربع القاعدة يعلوه برج دائري الشكل ينتهي بمسلة مخروطية، وفي قمتها مظلتان من البرونز يتدلى منهما 14 جرساً نحاسياً. ويحتوي المبنى على مخطوطات بوذية من التيبت. وأمام هذا الصرح يقوم معبد بوذي وعدة قاعات أخرى، إضافة إلى برجي الجرس والطبل.

تعرض المبنى في أواخر القرن الثالث عشر لحريق مدمر، وأصاب زلزال سنة 1976 شطراً منه بالخراب، ثم جرى إصلاحه وترميمه بعد ذلك لتكون الحديقة ومعالمها متنزهاً للأهالي ومزاراً أثرياً ممتعاً للضيوف.

من أجمل المعالم الفنية في الضفة الشمالية الغربية من البحيرة تقوم اللوحة الجدارية المعروفة باسم (جدارية التنينات التسعة) بألوانها الزرقاء الساطعة، وهي الأثر الوحيد الذي يحتوي على تسعة تنينات في جانبيها كليهما. كما تقوم المدينة الدائرية وأجنحة عمرانية أخرى في الركن الجنوب الغربي من البحيرة.

ساحة السلام السماوي

ساحة تيان آن مين Tian'anmen تمتد إلى الشمال من بوابة السلام السماوي وقد أخذت اسمها منها. وهذه البوابة التي ترتفع صورة الزعيم ماو فوق أوسط مداخلها الخمسة، هي واجهة القصر الأمامية وأجمل بواباته الأربع، وتعتبر من أهم المعالم العمرانية في العالم بضخامة حجمها، إذ يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار، ويرتفع فوقها برج نحو 34 متراً. وأمام هذا الصرح تمتد سبعة جسور قائمة على قناطر رخامية عبر «النهر الذهبي»، كل

جسر يؤدي إلى مدخل. ويبدو الجسر الأوسط أعرض قليلاً من الجسور الأخرى، وهو خاص بالإمبراطور فلم يكن عبوره مسموحاً لغيره. أما الإمبراطورة وباقي الزوجات والمحظيات ورجال البلاط فلكل مرتبة بوابتها، إلى اليمين والشمال. وظل دخول الساحة محظوراً في العهود الإمبراطورية ولم يسمح لأبناء الشعب بارتيادها قبل زوال النظام الإمبراطوري سنة 1911. وبوابتها تشكل منصة تاريخية للخطابة ومسرحاً شهد أحداثاً كبرى. ومن هذا المنبر أعلن قائد الثورة ماو تسي تونغ قيام جمهورية الصين الشعبية في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول 1949.

تبلغ مساحة هذا الميدان 440 ألف متر مربع، وهو يتسع لمليون من الجماهير المحتشدة في مواسم الاحتفالات، ويعد أوسع ساحة عامة في العالم، وهي ما زالت تحتفظ بذكرى انتفاضة الطلبة في الرابع من مايو/ أيار 1919، يوم احتشد فيها ألوف من طلاب جامعة بكين، إضافة إلى طلبة من 13 معهداً احتجاجاً على إبرام معاهدة فرساي المذلة. والتاريخ يسجل أن تلك الانتفاضة هي التي مهدت الطريق وهيأت المسرح لانطلاقة الثورة الاشتراكية في البلاد.

وقد أقيم في وسط الساحة نصب أبطال الشعب، ويعد أضخم نصب تذكاري في تاريخ الصين. وقد نقش على قاعدته عبارة قالها ماو: «أبطال الشعب خالدون». وقفت أمام المشهد طويلاً، وأنا أستعيد في خاطري لمحات تاريخية من طريق الحرير وحروب الأفيون والمسيرة العظمى ومنظمة دول عدم الانحياز والزعيم الصيني شو إن لاي على رأسها (وإلى جانبه عبد الناصر ونهرو وتيتو) وأخذت عدة صور، ثم تناولت دفتري لأسجل فيه بعض المعلومات التي تضمنتها اللوحة التذكارية هناك:

– في 1949/9/30 تمت الموافقة على بناء النصب، أي قبل إعلان الجمهورية بيوم واحد.

– استغرق بناؤه ست سنين (1952–1958)، وفيه 17 ألف قطعة من الغرانيت والرخام الأبيض.

– ارتفاعه 37 متراً و96 سنتيمتراً؛ وطوله 61م و54 س. م. (ومحوره: شرق/غرب)؛ وعرضه 50م و44 س. م.

إن الأبهة الإمبراطورية الغابرة ما زالت تتجلى في العديد من معالم الدولة الحديثة في الصين المعاصرة. إن الشعب العظيم يعبر عن مسيرته الحضارية بما يبني من صروح عمرانية وأنصاب

تذكارية ستبقى شاهداً ماثلاً أمام أبناء الأمة جيلاً بعد جيل. وفي الجانب الشرقي من هذه الساحة يقع المتحف الوطني؛ وتشير المراجع التاريخية إلى أن أقدم القطع الأثرية المحفوظة فيه تعود إلى مليون وسبعمائة ألف سنة، لكنه كان مغلقاً بسبب الترميم. ولن يفتتح أبوابه حتى 2010. وفي الجانب الغربي المقابل للمتحف يقع مبنى المؤتمرات (قاعة الشعب الكبرى) الذي أقيم سنة 1959، وهو مؤلف من ثلاثة أقسام: القاعة المركزية، والمدرج الذي يضم عشرة آلاف مقعد، وقاعة المآدب وتحتوي على خمسة آلاف مقعد. وفي الطرف الجنوبي أقيمت القاعة التذكارية لزعيم الثورة ماو تسي تونغ، وهي مؤلفة من ثلاثة طوابق: اثنان فوق الأرض والثالث قبو وضع فيه جثمان الزعيم في تابوت من الكريستال.

وإذا كانت الصين تمتاز بالمعالم التاريخية والصروح الحديثة، وتمضي أياماً بل أسابيع وأنت تطوف بين منجزات الماضي والحاضر وآثارهما الجميلة، فإن ذاكرة الأدباء والفنانين لا تستطيع أن تنسى مرارة تلك السنوات العشر القاسية في ظل الثورة الثقافية (1968–1978). ويؤكد بعض الكتاب أنها كانت أفظع السنوات وأشدها ضراوة وإيلاماً. إن إخراج الطلبة والموظفين

إلى الأرياف لمساعدة الفلاحين واختبار العمل اليدوي في الزراعة كان يهدف إلى ضرب النزوع البرجوازي والاسترخاء الكسول في مؤسسات الدولة ومكاتبها البيروقراطية، لكن ذلك الإجراء العشوائي الظالم جرَّ على ضحاياه ألواناً من الذل والكرب والوبال. وحين نستعرض التاريخ الإمبراطوري نجد أمثلة سابقة لذلك، ولو بصورة كاريكاتيرية عابرة. هناك حكاية قديمة عن إمبراطور التقى فلاحاً يحرث حقله، فبادر إلى استلام قبضة المحراث محاولاً أن يكتشف عمل الفلاح، لكنه سرعان ما شعر بالتعب وتقطعت أنفاسه، فلم يملك غير التخلي عن المحراث والإشادة بجهود الفلاحين المضنية.

مسجد في الحي القديم

في آخر أيام زيارتنا، قمنا بجولة صباحية حرة في أحياء المدينة القديمة. وفي أحد الشوارع الفرعية، لفت نظرنا هلال وكلمات عربية تشير إلى وجود مسجد. صعدنا بضع درجات حجرية وحيينا الرجلين الواقفين لدى الباب. ردا على سلامنا بلطف وقام أحدهما بمرافقتنا إلى الداخل، دون أن يخلع حذاءه أو يطلب منا ذلك. صحن المسجد المكشوف لا تزيد مساحته على أربعين

متراً مربعاً، في زاوية منه نمت شجرة كانت تستقبل الربيع بنضرة زاهية، وفي إحدى الغرف الجانبية كانت بعض النسوة يقمن بإعداد خبز شهي لم ننعم برؤية مثيل له منذ عشرة أيام. وفي زاوية أخرى، وضع صندوق للتبرعات لم نستطع تجاوزه دون أن نلقي فيه ما تيسر في جيوبنا من نقود معدنية. كانت هناك حجرة للدراسة، وحجرة أخرى فرشت بالسجاد للصلاة يتوسط قبلتها المحراب. وكان الهلال يطل علينا من فوق المئذنة التي لا ترتفع عن سطح المبنى أكثر من مترين.

لا أحد ممن واجهناهم هناك كان يعرف العربية أو الإنجليزية، وحتى لغة الإشارة لم تفلح في الحصول على نشرة سياحية تبين لمحة من تاريخ المبنى. شعرت بغصة شديدة المرارة: أمن الضرورة أن يقترن البؤس والإهمال بالمسلمين إلى هذه الدرجة حتى في أقاصي الشرق؟

إنسان بكين

قبل ما يزيد على مليون ونصف المليون من السنين عاش إنسان بكين في السهول الممتدة إلى الجنوب من العاصمة، وهو أول

إنسان وقف وسار منتصب القامة، كما أنه استخدم النار وحافظ عليها مثلما استعمل أدوات الحجارة بأشكالها البدائية الأولى. وقد عثر العلماء ما بين 1929 و1937 على لقى فخارية وبعض الجماجم وقطع من جماجم ذلك الإنسان وأسنانه في قرية (جوكوديان) الواقعة على سفح جبلي تبعد نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من بكين. ويعتبر هذا الاكتشاف ذا أهمية استثنائية في معرفة تطور الجنس البشري من خلال دراسة حجم الدماغ. زيارة الكهوف التي أجريت فيها عمليات التنقيب، وتم العثور فيها على تلك الآثار، كانت في عداد برنامج رحلتي. لكن بعض الأصدقاء، وبخاصة من أساتذة الجامعة، أكدوا لي أن الرحلة إلى هناك قد تكون متعبة وباهظة التكاليف في الوقت والجهد، بغض النظر عن أجرة السيارة الخاصة ذهاباً وإياباً وانتظاراً. كما أن المعلومات الهامة المتعلقة بذلك الإنسان يمكن الحصول عليها من الكتب، وإن كانت السياحة في تلك المنطقة الجبلية والتنقل بين كهوفها المستكشفة ممتعة ومفيدة لمن لديه الوقت الكافي وهمة الشباب.

لذلك أحجمت عن المغامرة واكتفيت بحدائق بكين ومعابدها ومكتباتها وسوق الحرير فيها. وفي إحدى جولاتنا داخل

العاصمة، رأيت أن برج التلفزيون يغري بالزيارة والصعود. لكني تذكرت أني أعاني من رُهاب الأماكن المرتفعة، ولست مستعداً لاحتمال الدوخة التي تصيبني كلما أطللت من مكان مرتفع. ولعل المعالم والآلات الفلكية القديمة الباقية في حديقة مخصصة لها كمتحف للعلوم والأدوات الفلكية كانت بديلاً أجمل ومنظراً أكثر فائدة ومتعة من الصعود على جيرة السحاب.

جامعة وأصدقاء

خلال جولاتنا اليومية، كانت فاطمة –رفيقة الدرب– تلفت نظري إلى خلو الشوارع من المتسكعين والعاطلين عن العمل، وتتحدث بإعجاب أننا لم نصادف متسولاً واحداً طوال وجودنا في بكين. خطر لي أن ذلك من حسنات النهج الاشتراكي، لكن بعض الأصدقاء قالوا إن مدناً أخرى لا تخلو من مظاهر الفقر والبطالة، وخاصة في بلاد يقترب عدد سكانها من مليار وربع المليار. وإذا كنا نكتشف أنفسنا ونزداد معرفة وخبرة ونتجدد في الاغتراب، كما يقول الشاعر أبو تمام، فإن زيارة جامعة بكين لا يمكن أن تنسى. كانت فرصة طيبة غالية أن أعلم الأستاذ شريف بقدومي وأملي بأن يسعدني بلقائه. لكنه فاجأني بأريحيته وجميل

تواضعه حين تفضل مشكوراً بزيارتنا في الفندق ومعه زوجه الفاضلة. والمصادفة العزيزة في ذلك اليوم (السادس من إبريل/نيسان) أني كنت أودع خريفي الثاني والسبعين لأستقبل ربيعاً جديداً، وقد أخبرت البروفيسور شريف بأن فاطمة وعدتني أن نحتفل بذلك، وسنكون سعيدين جداً إذا قبلا دعوتنا ومشاركتنا في العشاء والحلوى وإيقاد شمعة رمزية. لكنه بطيبته وسماحته وأصالة كرمه فاجأنا بأننا سنكون ضيوفه وقد حجز مسبقاً في أحد المطاعم الخاصة بتقديم ألوان من المائدة الصينية التقليدية، وعلى رأسها بطة بكين.

تناولنا الشاي الأخضر في بهو الفندق وأخذنا بعض الصور التذكارية معاً، ثم انطلقنا في سيارة أجرة بصحبة الأستاذ شريف وقرينته. مضى السائق بنا في شوارع العاصمة نحو العنوان المطلوب، لكنه لم يكن على معرفة دقيقة بموقع المطعم فاضطر لسؤال أحد رجال الشرطة وهم، فضلاً عن طيبتهم وسرعة استجابتهم واستعدادهم الفوري للمساعدة، أدرى الناس بخارطة المدينة. لذلك، كنت أستعين بهم في إرشادي إلى المكتبات التي تحتوي على كتب صينية مترجمة، ولم يخيبوا رجائي أبداً.

ودخلنا المطعم الوضاء الفخم، وقادتنا صبية رقيقة إلى ركن

خاص وحميم. ولمحت ابتسامة فاطمة وشماتتها بي حين رأت انخطافي بذلك المحيا وملامحه الناعمة، بينما كانت الجميلة ترافق الأستاذ إلى الزاوية المحجوزة دون أن أحظى منها بالتفاتة أو كلمة... وشعرت بشيء من الغيرة فتذكرت «لوعة» الشاعر الحمداني (أبو فراس) وخطر لي أنها لا يمكن أن تعاملني بهذه الحيادية أو اللامبالاة لو كنت شاعراً صينياً – سامحها الله!

كانت المائدة دائرية قابلة للحركة، يسهل عليك تدويرها واختيار ما تريد، وهي حافلة بألوان من الأطباق الصينية التي شغلت نفسي بكتابة بعض أسمائها.. ثم تخليت عن القلم والدفتر مخافة أن أضيع، وبخاصة أن لفظ الهاء يلتبس بالخاء، كما أن اندغام النون والغين يصل إلى سمعك بغنة مبهمة، ويختلط الزاي بالجيم بحرف مضعف آخر هو التاء والشين معاً، أي (تش). ولعل مسألة اللغة تقتضي حقلاً مستقلاً للبحث والتأمل والمتابعة، خارج هذا السياق.

إن المائدة جزء هام من تراث الشعوب وثقافتها وتقاليدها المتوارثة عبر الأجيال، وهي ترتبط بالزراعة وتربية الحيوان وصيد البر والبحر، كما ترتبط بفن الذائقة والحس الجمالي وتطور الصناعة والإعداد. ولقد أمضينا سهرة ودية ممتعة، والأستاذ

شريف مستعرب جليل نقل العديد من كنوز التراث العربي إلى الصينية، ومنها الموسوعة الإسلامية لأحمد أمين. وكان ظهر الإسلام بغلافه الأخضر آخر الأجزاء في ترجمته، وقد حملته معي هدية إلى الصديق الدكتور محمد عبد الرحمن يونس الذي قام بتدريس الأدب العربي في تلك الجامعة منذ سنوات.

وكانت هناك فرصة طيبة ثانية تجلت في دعوة كريمة تلقيتها من عميد كلية اللغة العربية الدكتور عمار – البروفيسور Zhang Hong ونائبه الدكتور بسام ومما يلفت النظر أن الأساتذة والطلبة المستعربين يختارون أسماء عربية مما يجعل التخاطب معهم سهلاً ميسوراً، مادام العربي يجد صعوبة في لفظ الأسماء الصينية، في غالب الأحيان، أثناء التعارف واللقاءات الأولى. وأنا على ثقة أن هذه الالتفاتة النبيلة السارة تعد من مزايا الشخصية الصينية التي يهمها أن تضفي جواً من الألفة والمودة على كل لقاء جديد وتبعد كل حرج ممكن يشعر به الضيف القادم من بلاد أخرى.

وإذا كانت برودة الثلج الباقي في الزوايا الشمالية الظليلة من أعالي السور العظيم قد جرحت صدري وأودت بصوتي وحرمتني من الحديث بوضوح وطلاقة خلال المحاضرة التي ألقيتها عن الشعر العربي وركزت فيها على منظومة القيم والمبادئ الإنسانية

والجمالية التي احتفى بها ديوان العرب عبر تاريخه المديد، كالحرية والمحبة والعدالة والفروسية والسلام وإغاثة الملهوف، فلا أملك هنا إلا أن أكرر شكري للسيد العميد «البروفيسور عمار» وسائر الأساتذة الأصدقاء في تلك الأمسية اللطيفة الحافلة في رحاب ذلك الصرح الأكاديمي الجميل الذي أسرني بلطف أجوائه ومودة العاملين والمتعلمين فيه. وحين انتقلنا من قاعة المحاضرة إلى جانب آخر من المبنى، عبرنا زوايا وممرات مدهشة في طرازها المعماري، ولم أدرك أني في جناح مطعم خاص بالجامعة حتى تحلقنا حول تلك المائدة العامرة بألوان من الأطباق الصينية التي تمتاز بشهرة عالمية. كما أن الأحاديث الحميمة التي دارت بيننا في تلك السهرة زادت من أهمية اللقاء وملأته بهجة وفائدة ومتعة.

ويطيب لي في الختام أن أؤكد على الأمل بأننا سنلتقي مستقبلاً مع هؤلاء الأساتذة الأجلاء وطلبتهم الجادين، سواء في أبوظبي أو دمشق أو بكين. فما دامت جسور المودة والتفاهم والتواصل متينة راسخة بين الشعوب، وما دام مستقبلنا الحضاري والإنساني مشتركاً فوق هذا الكوكب الجميل، فإن مواسم اللقاء وفرص الحوار وتبادل الرؤى والتجارب والأفكار ستظل واجبة وميسورة،

تتجدد مع كل ربيع وكل خريف. وهذان الفصلان من أهم الفصول وأغناها في تراث الصين العريق، واقعاً وتاريخاً، شعراً ورسماً وموسيقى.

المحتويات

– العملاق الصيني دائب على استكمال نهضته ____________ 5
– بين أضرحة الأباطرة والسور العظيم ________________ 31
– كيف يدخل الشعر في نسيج الحياة وتصميم الحدائق؟ ____ 57